د. إبراهيم بيضون

عبد الله بن سبأ

اشكالية النص و الدور الاسطورة



دار المؤرخ العربي

د. إبراهيم بيضون

عبد الله بن سبأ

اشكالية النص و الدور الاسطورة

دار المؤرخ العربي

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان - ص.ب: ٢٤/١٢٤ - هاتف: ٨٢٠٨٤٣

خليوي: ٠٣/٨٩٠٨٢٠ - فاكس: ٦٠١٠١٩

الإهداء

إلى الـذيـن رأوا الحـقيقـة بـقلوبـهم

وسـطـع نـورهـا في الـعـقل ....

الـذين شهـروا سيـفاً تحـت لـوائها

و غـمسـوا في حـبرهـا قـلـمـاً ....

أرفع إلى مجـد كلمتهم هذا الكتاب .

جدول الخطأو الصواب لكتاب عبد ا لله بن سبأ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	١٣	قبله	قبل
١٥	٦	ذكائه	ذكاءه
٢٦	١٠	أبو	أبوا
٢٧	٤ - ٥	هذا الطبري	هذا المؤرخ
٢٨	٥	على غير مألوف	على نحو غيرمألوف
٣١	١٤	وفقاً لما	وفق ما
٣٣	١٥	ضالع	ضالعاً
٣٤	٤	ومتحفزاً	متحفّزاً
٣٦	١	هذا نطرحه	هذا سؤال نطرحه
٤٠	٧	تبدي	تبدّى
٤١	١٧	فأذا	فإذا
٤٣	١٦	فأن	فإن
٤٨	٦	إذ أن كلاهما	إذ كلاهما
٤٨	١٥	وستعرض	وسنعرض
٤٩	٤	ملاءماً	ملائماً
٤٩	٥	مهيئاً	مهيأ
٥٥	١٤	التنبئوات	التنبؤات
٥٧	٩	فأنه	فإنه

٦٣	٥	فأذا	فإذا
٦٥	٤	فأنه	فإنه
٦٧	١٢	المليئ	المليء
٦٧	١٤	طريقة	طريقه
٧٢	٧	بنطوي	ينطوي
٧٣	١٠	بن	ابن
٧٥	١٢	فأن	فإن
٧٨	١٣	الهاديء	الهادئ
٨٣	١٥	بن	إبن
٨٣	١٦	يقولن	يقول
٨٦	٤	فيه الرواية	في الرواية
٨٦	١٦	هذة	هذه
٨٩	١٣	واحد	واحدة
٩١	٧	فأنه	فإنه
٩١	١٤	الهاله	الهالة
٩٣	٧	شيأ	شيئاً
٩٣	٧	الوصية الوصية	الوصية
٩٥	٣	ما ينّم هذا الموقف	ما ينّم عن هذاالموقف
٩٧	٥	عن	عنه
٩٨	٨	محّرضاً عن	محّرضاً على
١٠٠	١٠	انظوائنها	انضوائهم

١٠١	٤	يفوت	يغوث
١٠١	٧	ولّاه	ولاّه
١٠١	١٦	الائحة	اللائحة
١٠٢	٧	بما	مما
١٠٤	١٤	ابن	بن
١٠٥	١	هذا	هذه
١٠٥	١٣	تشطياتيه	تشظياتيه
١٠٦	١٢	الحققية	الحقيقة
١٠٨	١٠	ظهرو	ظهروا
١٠٨	١٤	طوئفي	طوائفي
١١٠	٥	فأنه	فإنه
١١٢	٣	سلطه سياسة	سلطة سياسية
١١٢	١١	بالأهتمام	بالإهتمام
١١٢	١٣	حولة	حوله
١١٢	١٦	شئ	شيء
١١٦	٦	حجمة	حجمه
١١٧	١٥	فيُنتظر	فُينظر
١١٨	١	فأنه	فإنه
١١٨	١٠	فأن	فإن

مقدمة

كان وقت غير قصير يمر ، و التاريخ لا يشكل سوى هامش في اهتمام النخبة التي دأبت على دراسة الإسلام قرآناً و حديثاً ، دون أن تكون السيرة النبوية مندرجة حينذاك في أعماله ، بقدر ما كانت دوافعها دينية ، تتوخى في الأساس إبراز شخصية الرسول النموذج و القدوة في حياة المسلمين . و لم يكن ذلك ناجماً عن قصور في الوعي التاريخي خارج هذا السياق ، و لكن النخبة تجنّبت في ذلك الوقت ، الخوض على نطاق واسع في أخبار ليست لها هالة "الأحاديث" و لا تتمتع بدقتها ، و بالتالي تفتقد إلى ضوابطها و كل ما يجعلها خارج دائرة الشك لدى "المثقف" الملتزم بالإسلام .

على أن التاريخ و قد أخذ يستقل بصورة ما عن علوم الدين ، دون أن يتحرر من رؤيتها و منهاجها ، ظلت صورته يكتنفها الغموض ، ربما لأن حرية المؤرخ في تتبع أخباره لم تكن متاحة على النحو الذي تيسر له من قبله إبان اهتمامه بعلوم القرآن و الحديث . بالإضافة إلى ذلك فإن مهمته في هذا المجال ليست خالية من الخطر ، انطلاقاً من حالة يجسدها

التاريخ أو يتفرّد بها ، وهي التي ربما كان ابن خلدون من ابرز المغامرين على ساحتها ، إذا توقفنا عند وصف ((لاكوست)) له بأنه "خالق علم أساسي و خطر ، ألا هو التاريخ"[1] . فما بين الحقيقة و نقيضها قد لا تكون هوة عميقة تفصل بينهما ، وهي مسافة نسبية في مطلق الأحوال . على أن الصراع يبقى قائماً و المؤرخ لابد له من الخوض فيه ، ليس كطرف علي مساحته ، ولكن محاولة البحث الدائبة عن الحقيقة ، تبقى في طليعة همومه ، و هي التي تقوده وراء الضوء في دهاليز النص التاريخي وشعابه ، هذه الحقيقة التي رأى ابن خلدون نفسه أنها قوة "لايقاوم سلطانها"[2]، أما نقيضها فهو باطل " يقذف بشهاب النظر شيطانه"[3]".

ولكن ابن خلدون – وقوله يجسد رؤية مثالية في الفكر التاريخي– قد يكون من الصعب تعميم قوله على مساحة الحدث كافة ، برغم المرجعية التي تبقى للعقل . فالخطر الذي تهيّب المؤرخون الأوائل الاقتراب منه ، ليس مثله الذي يعيق المؤرخ اليوم ، أو يتردد في ركوبه لاستشراف ما أحجم الأسلاف عمداً عن ذكره ، أولئك الذين دونّوا أخبارهم و كثيرٌ منها كان ما يزال ساخناً ، مما جعلهم في بعض الاحيان طرفاً فيها ،

---

[1] العلامة ابن خلدون ص ٢١٢

[2] مقدمة ابن خلدون ص ٣

[3] المكان نفسه

منحازين للمواقع التي حملوا رؤيتها بوعيهم و إحساسهم، و دائماً في ظـلّ حركة تواصليه مع الماضي الحاضر جلياً في زمانهم .

خلافـاً لذلـك فـإن المـؤرخ الموضوعـي ، ليـس معنيـاً بـالتجوال وراء حدود النص "البارد" أو الاحتكاك بمشاعر صاحبـه، ولكـن مـن صلـب مهمته ، تفكيك عناصر هذا النص من دون العبـث فيـه ،و الوصـول مـن خلال قراءة نقديه له إلى رؤية اكثر مقاربة للحقيقة التاريخيـة . فـلا سـبيل في النتيجة سوى اقتحام الخطر و هذا من طبيعة المؤرخ و صميـم دوره ، الاّ إذا كان عازفاً عن الإبحار مكتفياً بالمكوث على الضفاف . "لا توقـف إذاً -كما قـال الصديق ، الكـاتب ، المبـدع طـلال سـلمان [1]- لا محطـة نهائية له (المؤرخ). الجزئيات فضاء بلا نهايـات ، و عليـك إعـادة تجميـع المتماثل والمتناقض لتكوين صورة أوصور تعيدتجسيد اللحظة و النظام[2] " .

و لعله من هذا الباب بالذات يصّح الدخول في موضوعة عبد الله بن سبأ ، المتداخلـة في خطـوط الحـدث - الفتنـة، الأشّـد خطـورة في مسـار التاريخ الإسـلامي. و صـاحب هـذه الشـخصية ، و إن تجّنـب الدارسـون حتـى وقـت متـأخر ، البحـث مباشـرة في ملابسـات دورهـا و مؤثراتهـا الفعلية في متغيرات المرحلة ، تفرّد بذكره إخباري معروف هو سيف بـن

[1] صاحب ورئيس تحرير جريدة السفير

[2] جريدة السفير (٢٣ / ٢ / ١٩٩٦)

عمر التميمي ، دون أن يأخذ بروايته سوى مؤرخ من الكبار المكرّسين ، وهو أبو جعفر الطبري . ومن هنا تبدأ فصول أكثر المسائل تعقيداً في هذا التاريخ ، إذ أن صاحب" الرسل و الملوك" المتميز بحيطته ، وهو الفقيه أساساً، أورد هذه الرواية دونما تشكيك أو ما يقاربه بها، مخالفاً ما لجأ إليه أحياناً قليلة في تاريخه الطويل. و لعل الباحث لا يجد من هذا المنظور سوى التعامل مع نصٍ قائم ، اعتمده مؤرخ رصين مثل الطبري ، و لكنه انطلاقاً من نقاط ضعف بارزة في الرواية ، تخالجه الشكوك في تفاصيلها قاطبةً ، حيث الطريق اليها مليء بالألغام ، و السير في شعابها محفوف بـ "الخطر".

و على الرغم من دخولي مُبكراً و على مستوى مكثف ، حلبة هذه المرحلة ، فقد أعرضت عن التوغل في الموضوعة " السبئية" ، انطلاقاً من خلل واضح في الرواية وعدم اتساق مع المناخ العام المندرجة فيه . و لكن حدث مؤخراً أن مجلة فكرية جديدة ، كلفني المشرفون عليها بدراسة في هذا الموضوع ، فلم أر بداً – وقد استجبت للأمر- أن أخوض فيه و أستعيد قراءته دون أن تغيب عن البال صعوبة المهمة و دقتها وخطورتها.

وبالعودة إلى مصدر الرواية في تاريخ الطبري ، وجدتني مصطدماً بضحالة المادة التي جاءت مبعثرة في سياق السنوات الثلاثة و الثلاثين

والخامسة و الثلاثين للهجرة . و اختصارها أن يهودياً من صنعاء (اليمن)،اعتنق الإسلام في هذا العهد و أخذ يدعو لرجعة النبي و الوصية لعلي ، منتقداً بقسوة الخليفة و منددا بسياسة الانحراف لإدارته . فالتقى من هذا المنطلق بشخصية صحابية (أبو ذرّ الغفاري) ، كانت تقوم بحركة في هذا الاتجاه ونسبت إليه (إبن سبأ) الرواية ، تشكيل دعوة سرية امتدت من البصرة إلى الكوفة ،فالشام و مصر حيث لمخرط فيها عدد من كبار المسلمين كان بينهم أبو ذرّ و آخرون من الصحابة والقيادات البارزة في المرحلة .

هذه الرواية التي لم يشارك الطبري فيها معاصروه من المؤرخين المكرّسين ، إنما يتجلى ضعفها الأساسي في هذا التفرّد، علماً بأن هؤلاء رووا سيرة عثمان بتفاصيلها ، دون أن يكون ما ذكره "المسعودي" عن ظهور يهودي مشعوذ في إحدى قرى الكوفة له علاقة بالحركة السبئية. وفي ضوء ذلك ، فإن المقارنة التي هي من أبرز العناصر في الكتابة التاريخية تصبح معدومة في مثل هذا الموضوع حتى لدى الطبري نفسه الذي من عادته إيراد عدة روايات عن الحدث الواحد . و إذا استثنينا ابن الأثير -وهو مؤرخ متأخر ، نقل رواياته حتى نهاية القرن الثالث عن الطبري - فإن المصادر التاريخية تجاهلت رواية سيف هذه، فيما المصادر "الفقهية"

اقتبستها أيضاً من هذا المكان ، ولكن في سياق التصنيـف للفـرق الدينيـة، ومنها السبئية منسوبة إلى مؤسسها عبد الله بن سبأ.

وكانت هذه الرواية ما تـزال متداولـة مـن جـانب فريـق يقبلهـا مـن المؤرخين ، انطلاقاً من رؤيته الدينية التي ربما تتوّحد فيها النظرة إلى الخليفة " الشرعي" مع "شرعية" النص التاريخي، وفريق آخر له اجتهاده في النظرة إلى الاثنين ، و ينطلق من ثوابـت أساسـية في هـذا المجـال. و لم تخـرج إلى مستوى الجدل إلا في النصـف الأول مـن هـذا القـرن ، حـين تعّـرض لهـا الكاتب الكبير طه حسين في دراسته القيمة " الفتنـة الكـبرى". ولعلـه هـو الذي كان ابن خلدون موضوعاً لأطروحته في الدكتوراه و استنار بفكـره في اعتماد العقــل طريقـاً إلى الحقيقـة ، كـانت لـه ريادتـه في إعـادة قـراءة الحركة السبئية و إخضاع صاحبها أو دوره لعملية نقد صارمة أوصلته في النهاية إلى الشك بوجوده ، فاتحاً بذلك الباب أمـام قـراءات مشـابهة إلاّ أنها لم تبلغ مستوى قراءته في الملاحظة و التحليل و الاستنتاج.

و الواقع أن وقتاً غير قصـير مـرّ علـى هـذه الدراسـة قبـل أن تُحـدث تغييراً فعلياً في منهج الكتابات التاريخية حول هذه المسألة، إذ بقيت النظرة بصددها محكومة بالتراكم القائم على الرواية . و لكنها أخذت في ستينات القرن تحرك الحوافز لإعادة القراءة في هذا الموضوع ، ابتداءً بالمؤرخ السيد مرتضى العسكري الذي دفعه الاهتمام به إلى إجـراء تقويـم شـامل لمجمـل

روايات سيف بن عمر ، و منها روايته عن عبد الله بن سبأ في كتاب يحمل اسم الأخير و " أسطورته " . ولا نريد استباق الأمور هنا للحديث عمّا أضافه العسكري إلى هذه المسألة ، تاركين ذلك إلى حينه في كتابنا .

على أن الدراسة التي و ضعها مؤخراً هشام جعيط عن "الفتنة" ، وما انطوت عليه من نظرة – على اقتضابها – إلى الموضوعة السبئية، ما يجدر التنويه به ، وهي صادرة عن قراءة نقدية وواعية .

ويبقى في النهاية أن هذا الكتاب لم يكن الهدف منه الدخول في جدل حول الداعية السبئي، سواء كان شخصية واقعية أم اسطورية ، و إنما هو محاولة قراءة جديدة ، حدثاً ودلالة ، داخل النص التاريخي وزمانه ، ذلك الذي تبقى العلاقة معه هي الأساس ، وليست شخصية "البطل" التي تصبح ثانوية في ركوب " الخطر" ، حيث لا تنتهي معاناة المؤرخ.

بيروت في ٤ / ٣ / ١٩٩٦

القسم الأول

عبد الله بن سبأ

الحدث والدلالة

-١-

الاسرائيليات

تندرج حركة عبد الله بن سبأ فيما يُعرف بالإسـرائيليات في التـاريخ الإسلامي ، و التي كانت تجلياتها في يـثرب ، حيـث تـداول اليهـود - أو قيل ذلك - أخباراً عن ظهور قريب لنبي، و أخذوا يتوعدونـه و يهـدّدون من يعتقد به . فكانوا - حسب رواية الطبري - إذا جرى حديـث بينهـم و بين العرب(الأوس والخزرج) قالوا لهم : إن نبيـاً قـد أضـل زمانـه ، نتبّعه و نقتلكم معه قتل عاد و إرم[١] " .

ولعل حديث الاسرائيليات كان أحد الموضوعات البارزة التي أولاهـا عناية كبيرة الاخباريون المسلمون إلى جـانب اهتمـامهم بسـيرة الرسـول. فكان من روّادها كعب الأحبار و هو عالم كبير مـن يهـود اليمـن عـاصر دعوة الإسلام و لكنه تأخر في الانضمام اليها حتى خلافة أبي بكر[٢] ، أي بعد رسوخ هذا الدين و انتشاره على مساحة واسعة خارج شـبه الجزيـرة العربية ، واصبح حينذاك مرجعاً للأخبار لما قبل الإسلام . فقد تتبع بعـض هؤلاء الإخباريين بشغف الفترة السابقة علـى الإسـلام ، في محاولـة منهـم

---

[١] - تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٥٤

[٢] سهيل زكار ، التأريخ عند العرب ص ٣٤

لربط الحاضر بالماضي ، وما يمكن أن تضيفه في التعرّف على الظروف والعوامل المؤثرة في العقيدة ، المتصلة جذورها بالحنيفية.

كان كعب الأحبار – و قد ظلّ مشكوكاً بإسلامه – أوّل المروّجين للإسرائيليات على نطاق واسع ،مما جعل الأخيرة تتخذ ذلك الحيّز في الروايات التاريخية العربية . و ثمة من يرى أنه مجرّد انتهازي ركب موجة الإسلام ، و لم ينفك مستخدماً ذكائه للطعن في "سلفية"[1] الدين و إظهار ما لليهود من معرفة واسعة بالغيبيات . حدث ذلك او شيء منه في عهد عمر بن الخطاب ، الذي تنبّه لما يضمره اليهودي المخضرم ، فيروي الطبري أن الخليفة عندما أراد إقامة المسجد في بيت المقدس بعد فتحها ، استدعى كعباً وسأله :" أين ترى أن نجعل المصلى ؟ فقال إلى الصخرة ، فقال (عمر) ضاهيت والله اليهودية يا كعب ... بل نجعل قبلته صدره .. فإنّا لم نؤمر بالصخرة و لكن أُمرنا بالكعبة[2] ".

وعندما توعد أبو لؤلؤة الخليفة عمر ، كان كعب حاضراً بدوره "المشبوه " مضفياً على الحادثة مسحة "توراتية" تذكّرنا بتلك الأجواء التي سبقت هجرة النبي إلى المدينة . و في هذا السياق يروي الطبري ، أن كعباً جاء الخليفة في اليوم التالي فقال له " يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في

---

[1] السلفية هنا بمعنى الابداع و الريادة . انظر لسان العرب ج ٩ ص ١٥٨

[2] الطبري ج ٣ ص ٦١١

ثلاثة أيام. قال عمر : و ما يدريك ؟ قال احده في كتاب الله عـز و جـل التوراة : قال عمر: الله أنك لتجـد عمـر بـن الخطـاب في التـوراة ؟ قـال اللهم لا، ولكني أجد صفتك و حليتك و أنه قد فنى أجلـك[1] " . و علـى الرغم من أن احداً لم يأخذ بصحة أقوال كعب في المدينة ، فإنـه علـى مـا يبدو لم يكن بعيداً عن التهمة بأنه ضالع بصورة ما في عملية الاغتيال ، مما دفعه ربما بسبب ذلك الى الخـروج مـن الحجـاز و الانـزواء في حمـص[2] . ولكن الملف برمّته طوي بأمر من الخليفة الجديـد ، لأن التحقيـق لـو فُتـح لطال شخصيات كانت لها مصلحة في غياب الخليفة القوي ، و هــي الـتي ألمح اليها عبيد الله بن عمر ، بعد قتله ثلاثة[3] اعتبرهـم ضـالعين مباشـرة في الاغتيـال قـائلاً: " والله لاقتلـن رجـالاً ممـن شـرك في دم أبـي، " يعـرّض بالمهاجرين و الأنصار" حسب الرواية التاريخية[4]. و كان علـي قـد طـالب بإجراء محاكمة للمتهمين ، بمن فيهم ابن الخليفة السابق ، ألا إن ذلك لقي معارضة من " بعض المهاجرين" فضلاً عن عثمان الذي حسم الأمـر علـى الطريقة "الأموية" ، حين تحمل دية القتلى من ماله الخاص[5] .

---

[1] الطبري ج٤ ص١٩١

[2] زكار المرجع السابق ص ٣٤

[3] جفينه و الهرمزان و انية أبي لؤلؤة . الطبري ج٤ ص٢٣٩

[4] المكان نفسه

[5] الطبري ج٤ ص ٢٣٩

ينطوي كعب الأحبار بعيداً عن الاضواء في "منفاه" ، ولكن مدرسته ظلت قائمة تجذب اليها أولئك الذين أغراهم الدخول إلى عالم الأساطير و البحث في التاريخ المجهول لما قبل الإسلام . و قبل موته نُسب له القول في مجال التنبؤ : "لن يملك أحد هذه الأمة ما ملك معاوية[1]" .و قد تصدى لهذه المسألة بشكل خاص ، الاخباريون اليمنيون الذين و جدوا في الاسرائيليات مادة خصبة للتعرف إلى تاريخ بلادهم القديم . ومن أبرز هؤلاء : وهب بن منّبه و عبيد بن شريه في القرن الأول الهجري ، إذ راكم كلاهما وبدافع التعصب لموطنهم - كما يعتقد الدوري - أخباراً عن تاريخها هي عبارة " عن مزيج من القصص الشعبية و الاسرائيليات ، و حاولوا بذلك تمجيد عرب اليمن ، بأن نسبوا إليهم أمجاداً في الحرب و الصنعة و اللغة و الأدب و حتى في الدين ليدلّلوا على انهم سبقوا عرب الشمال في أمجادهم أو أنهم لا يقلّون عنهم في ذلك"[2] .

و قد تمتع عبيد بن شريه بشهرة خاصة في هذا المجال، لاسيما و أنه عمّر طويلاً و عاصر معاوية بن أبي سفيان الذي كان له شغف بسماع قصص التاريخ، " ويستمر - حسب رواية المسعودي- إلى ثلث الليل في أخبار العرب و أيامها و العجم و ملوكها و سياستها لرعيتها و سير ملوك

---

[1] السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٩٥

[2] عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٥

الأمم و حروبها و مكايدها ... و غير ذلك من أخبار الأمم السالفة[1] ".
وغالباًما استدعى معاوية عبيداً ليحدثه بمثل هذه الاخبار التي كان كثيرها علىما يبدوملفقاًويدخل في نطاق الاساطير أكثر من الواقع .

وهكذا يدخل الفكر اليهودي عبر التاريخ الى تراث العرب ، فيشكّل مادة أساسية في أخبار المرحلة السابقة على الاسلام . و كان أكثر من رُوّج له في ذلك الوقت المبكر الذي شهد بدايات التكوين التاريخي ، وهب بن منبه ،وهو وُلد لأم عربية في اليمن ، ألا أن الغموض يحيط بنسب أبيه، إذ يرى المؤرخ زكّار بأنه يتحدر من "الأبناء" الفرس و ربما اعتنق اليهودية[2] . ولكن وهباً سارع الى الانخراط في الاسلام ، و توصل الى أن يكون " من خيار التابعين ... ومات وهو على قضاء صنعاء"كما جاء في تصنيف ياقوت الحموي له[3] ، و الذي و صفه أيضاً ، بأنه "صاحب القصص.... كثير النقل من الكتب القديمه المعروفة بالاسرائيليات[4] ". و على الرغم من اتخاذ سيرة الرسول حيزاً ما في أخبار

---

[1] مروج الذهب ج٣ ص ٣١

[2] سهيل زكار ، المرجع السابق ص٣٦

[3] معجم الادباء ج١٩ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

[4] المصدر نفسه ج١٩ ص٢٥٩

وهب ، الا أنه اهتمّ أساساً- شأن عبيد بن شربه - بتاريخ اليمن ، دامجاً الكثير من الاسرائيليات بالأساطير العربية القديمة عنه[1] .

ولاشك أن تأثير الاسرائيليات ظلّ واضحاً ، و لوقت غير قصير ، في الأعمال التاريخية للعرب المسلمين ، حتى إذا كان عصر المؤرخين الكبار في القرن الثالث الهجري ، بات من المألوف في منهاجهم ، و ضع مقدمات لتواريخهم تتسع لقصص الانبياء السابقين ، وهو ما يندرج أيضاًفي باب الاسرائيليات[2] ، كما يتجلى على الخصوص لدى كل من اليعقوبي[3] والطبري[4] .و على هذا النحو سار المؤرخون في القرون التالية ، فجاءت مقدماتهم مزدحمة بأخبار الأمم القديمة ، لاسيما أخبار بني اسرائيل.

وإذا كان المؤرخون الأوائل ، في انكبابهم على التأريخ للاسلام ، قد رأوا أن عملهم لا يكتمل الا بالعودة الى ما قبله ، فإن موجة الاسرائيليات - ربما عن غير قصد - لم تعدم تأثيراً في أخبارهم ، لاسيما تلك التي يشوبها تلفيق عن حركات المعارضة. و ليس بعيداً أن تكون شخصية

---

[1] شاكر مصطفى ، التاريخ العربي و المؤرخون ج١ ص١٣٨

[2] المكان نفسه

[3] تاريخ اليعقوبي ج١ ص ٢٤ و ما بعدها

[4] تاريخ الرسل و الملوك ج١ ص٢٧٢ و ما بعدها

عبدالله بن سبأ من ضمن ما لفّقته الروايات التاريخية ، في سياق الدفاع عن الشرعية الممثلة بالخلافة ، و التي كان المؤرخون عموماً يدورون في فلكها و يرون أنها رمز وحدة المسلمين ، كائناً من كان القائم بأمرها . و هي مسألة لا تعدو المنهج في النهاية ، لأن المورخ محكوم بالنص ولاسبيل أمامه سوى الالتزام به، ولكنه انطلاقاً من الخبرة وما يتمتع به من ثقافة تاريخية ، فضلاً عن النظرة النقدية التي يتوصل اليها ، يستطيع ، ومن غير صعوبه التمييز بين الروايات ، شأن الذين حققوا في أحاديث الرسول فنبذوا الكثير مما ليس مقبولاً منها . و الشك يصبح هنا من واجبات المورخ ، دون ان يكون غير وسيلة لاكتناه الحقيقة التاريخية ، لأن الاستسلام للنص معناه الاصطدام بمنطق الحدث الذي خضع لاعتبارات ربما مسّت الجانب الموضوعي فيه .

و ليست رواية عبد الله بن سبأ وحدها مما يثير الريب لدى المورخ الذي يجد نفسه احياناً أمام أحداث ليست خالية من الصنعة أو من تدخل العنصر الخارجي فيها ، على نحوٍ يخّل بالانسياب في مسار المرحلة . ونتوقف هنا بشكل خاص عند حادثة " فلورندا"[1] التي يبدو أنها

[1] هي ابنة خوليان حاكم سبته الذي ارسلها الى بلاط الملك لذريق (رودريك) في طليطلة للتأدب بآداب الملوك . فبهر جمالها الملك الذي اعتدى عليها ، مما اثار حقد خوليان الذي اتصل-

مدسوسة من المؤرخين الأسبان،كأحد العوامل التي مهدت لفتح بلادهم ، دون أن يكون لها من هدف سوى تشويه الانجاز الذي حققة العرب المسلمون في اسبانية.

وهكذا تسرّبت إلى الفكر التاريخي العربي المؤثرات اليهودية، مؤديةً الى تراكم الأساطير و الغيبيات فيه ، دون أن يقتصر ذلك على الحقبات السابقة على الاسلام ، ولكنها انعكست بصورة ما على أحداث بعده ، لم تخل أخبارها من نفس أسطوري . و لم يتنبّه المؤرخون من أقطاب المدرسة الحديثة كثيراً إلى هذه المسألة ، خصوصاً و أن الغالبية منهم أغفلت نقد النص التاريخي ، مما جعل أعمالهم محاكاة لاعمال الاسلاف في المضمون و الاسلوب و حتى في طريقة التفكير . و عندما ترجم المؤرخ حسن ابراهيم حسن ، كتاب المستشرق الهولندي " فان فلوتن"[1] بدا تأثره واضحاًبالمناخ السائد في القرون الهجرية الاولى ، فاستبدل

-بالعرب وحرّضهم على غزو اسبانيا ، مقدّماً لهم المساعدات العسكرية حسب الرواية التاريخية . ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤

[1] ترجمه في الثلاثينات من هذا القرن تحت عنوان " السيادة العربية و الشيعة و الاسرائيليات في عهد بني أمية " . وقد قمت بإعادة ترجمته عام ١٩٨٠ .و صدرت مؤخراً طبعة ثالثه له حاملة العنوان الأكثر مطابقة للأصل الفرنسي ، وهو : السيطرة العربية و التشيع و المعتقدات المهدية في ظل خلافة بني امية

بـ"المعتقدات المهدية" (في العنـوان) ، "الاسـرائيليات" الـتي وجدهـا أكـثر ملاءمة لمنهاجه المتطابق الى حد كبير مع منهاج المؤرخين الاوائل .

-٢-

من هو عبد الله بن سبأ

بعد هذا المدخل في المنهج ، نتساءل إذا كانت شخصية عبد الله بن سبأ من انتاج ذلك الموروث " الاسرائيلي " الذي اختزنته الذاكرة العربية قبل مرحلة التدوين ، او بمعنى آخر ، اذا كانت مجرد اسطورة على هامش الأحداث ، أم حقيقة تغلغلت في نسيجها ، و بالتالي كانت وراء ذلك المنعطف الأكثر خطورة في تاريخ الاسلام ؟ هذه القضية ظلت ساكنة خلال قرون عديدة ، و لم يتعد التعرّض لها ما جاء في روايةسيف بن عمر" المفردة " عنها، أي انه تّم التعامل معها على أساس أنها جزء لا ينفصل عن سياق ما عرف بـ " الفتنة" الاولى، بل من أدوات تفجيرها الرئيسةعند بعض المؤرخين . ولقد بقي ذلك قائماً ، ما بقي المنهج التاريخي متوكئاً على منهج الرواية الخبرية، بعيداً عن أي نقدتحليلي أو مقارنة . على أن "السبئية" - دعوة ابن سبأ- اصطدم بها لأول مرة في هذا القرن، الكاتب الكبير طه حسين، وهو وإن لم يكن مؤرخاً الا أنه امتلك حسّاً تاريخياً مرهفاً ، مكّنه من الخوض في اشكاليات مهمة على

مساحة المرحلة .و قادته أبحاثه حول ابن سبأ الى التشكيك بظهوره في الاصل ، فاتحاً الباب أمام إعادة النظر في هذه المسألة و غيرها من المسائل في التاريخ الاسلامي. غير أن الشك يصبح يقيناً لدى مؤرخ معاصر ، وهو السيد مرتضى العسكري الذي تصدى على نطاق واسع لشخصية ابن سبأ ، متوجاً جهوده بكتاب قارب فيه المنهج العلمي و قد صدر في ستينات هذا القرن تحت عنوان" عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى". نقول قارب هذا المنهج ، لان الدخول كلياً فيه يقتضي الحيادية التامة وعدم الانطلاق من فكرة قائمة في تفسير التاريخ ، اذ أن العسكري يتعامل مسبقاً مع موضوعه على اساس أنه رواية ملفقة هدفها النيل من علّي ، وربط التيّار الذي يمثله بعنصر خارجي ، في حين أن المؤرخ محكوم من حيث المبدأ بالعودة الى النص، وأي استنتاج يصل اليه انما يكون من داخل هذا النص وليس بعيداً عنه . و لانقصد هنا التبخيس بما قام به هذا العالم المحقق ، ولكن الانحياز الذي يتجلى ابتداءً من المقدمة في الكتاب ، وذلك على قاعدة الرفض المطلق لوجود هذه الشخصية ، جعل منه طرفاً " مقاتلاً" ، أكثر منه مؤرخاً هادئاً يتوخى فقط الحقيقة التاريخية.

إن ما تردد من عبارات " متوتّرة "- إذا جاز التعبير- في مستهل الكتاب ، جاء استجابة لهذا الموقف الذي يسارع "العسكري" الى إعلانه. ومن ذلك: " يتلخّص ما زعموا بأن يهودياً من صنعاء اليمن

أظهر الاسلام في عهد عثمان و انـدسّ بـين المسـلمين ..... و سمّـوا بطـل قصتهم عبد الله بـن سـبأ، ولقبـوه بـابن الأمـة السـوداء.... و زعمـوا أن السبئيين أينما كـانوا أخـذوا يثـيرون النـاس علـى ولاتهـم .. وزعمـوا أن المسلمين بعد أن بايعوا علياً و خرج طلحة و الزبـير لحـرب الجمـل ، رأى السبئيون أن رؤساء الجيشين أخذوا يتفاهمون ... فاجتمعوا ليلاً و قـرروا أن يندسـوا بـين الجيشـين و يثـيروا الحـرب ... وزعمـوا أن حـرب البصرة..وقعت هكذا دون أن يكون لرؤساء الجيشـين فيهـا رأي أو علـم .... إلى هنا ينتهي هذا القاص من نقل قصة السبئيين ولايذكر بعـد ذلـك عن مصيرهم شيئاً"[1] .

ولعل نفي الكاتب على هذة الصورة لشخصية ابن سبأ ، قـد يـؤدي الى عكس ما يتوخاه ،أي الى تكبير هذه الشخصية و نسْب أعمال خارقه اليها ، حتى لو أشارت الى ذلك الرواية وفي هذة الحالة فإن منطق الحـدث الذي يعني المؤرخ و ليس الحدث نفسه ، خصوصاً إذا كان مقطوعـاً عـن سياقه او على تنافر معه. فـإذا توقفنـا عنـد حـرب الجمـل الـتي وردت في النص السالف كمسرح للسبئية ، فإنها- و استناداً الى مجموع الروايـات- قد نضجت فكرةً في مكة بعد التئام قادة المعارضة لعلي (طلحة ،الزبـير ،

---

[1] مرتضى العسكري ، عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى ص ٢٩ - ٣١

عائشة) و موافاة يعلي بن منية التميمي (والي عثمان على صنعاء) لهم ، ومعه خراجها ، حيث أسهم و الزبير وعبد الله بن عامر (والي البصرة في عهد عثمان) في تمويل حركتهم المناوئة للخليفة[1] .وقد اختار هؤلاء البصرة بعد دراسة دقيقة ، كونها مهيأة أكثر من غيرها لتشكيل بؤرة يعملون من خلالها على إسقاط خلافة علي. و ليست الحرب التي وقعت فيها الا محصلة حتمية لخروج قادة المعارضة في جو مشحون أساساً بالعداء للخليفة ، والذي لم يكن بحاجة الى عنصر آخر يسهم في شحنه و الجرّ الى الصدام المسلح.

و في ظل هذا المناخ ، ذهبت سدى مناشدة علي لهم "في الدماء" ، اذ " أبو الا الحرب " كما يقول المسعودي[2].كما تبدد تحذير الممول الرئيس للحركة (يعلي بن منية) الذي قدّر صعوبة الموقف في البصرة ، وأخذ يتجه بأنظاره الى الشام[3] ، حيث اسس معاوية سلطة قوية فيها ، متقاطعاً في ذلك مع عبد الله بن عامر الذي نصح بعدم تجاهله:" فان غلبتم علياً فلكم الشام وإن غلبكم علي كان معاوية لكم جُنّة"[4] .

---

[1] الطبري ج ٤ ص ٤٥٠ ، ابن الاعثم ، فتوح ج ، ص ٧٩

[2] مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦١

[3] الإمامة و السياسة ج ١ ص ٥٦

[4] المكان نفسه

والسؤال مازال قائماً .... من هو عبد الله بـن سبأ ؟ و بدايـة لابـد من القول – وهذا ما تنبه لـه أولاً طه حسـين و خـاض فيه على نطـاق واسع مرتضى العسكري – أن الطبري تفرّد من بين مؤرخي جيله الكبار، بذكر هذة الرواية المنسوبة للإخباري سيف بن عمر التميمي . و لعل هذا الطبري الذي تستهويه التفاصيل و عُرف عنه عدم الاكتفاء برواية واحدة، خلافاً لمعاصريه الذين تعمّدوا الانتقاء في رواياتهم ، كان يجنح احياناً عـن هذه القاعدة، فيقع في شرك الرواية المفردة في اكثر من موضع مـن تاريخه المطوّل ، منحرفاً بها عن السياق مكاناً و زماناً ، وعن المنهج الـذي التزم به على مساحة واسعة منه. ومن ذلك تلك الرواية الغريبة – وهي لسـيف ايضاً– التي تتحدث عن غزوة أمر بها الخليفة عثمان الى الأندلـس[1] ، دون أن يكون العرب المسـلمون قـد انتشـروا نفـوذاً فعلياً مـا يتعـدى برقـة في افريقيه . و إذا توقفنا عند الجزء الرابع من "تاريخه" ، والذي تغطـي مادتـه أحداثاً شـديدة الاهميـة في التـاريخ الاسـلامي (١٦- ٣٦هـ)، سـنجد غالبية المرويات عن هذه الفترة مسندة الى سيف بن عمـر. و هـذا الأخير لايتمتع كإخباري بالثقة نفسها التي يتمتع بها الآخـرون ممـن اعتمـد علـى رواياتـهم الطـبري ، الامـر الـذي يـدعـونا الـى الحـذر مـن ركـام

---

[1] تاريخ الطبري ج ٤ ص٢٥٥

الروايات لدى هذا المؤرخ، حيث انصبت غزيرة في مكان و تخلخلت حتى الرواية الوحيدة بل المبتسرة في مكان آخر.

و بالعودة الى رواية سيف عن ابن سبأ ، فإننا لانعثر فيها الا على القليل جداً من سيرة هذا الرجل ، نشأة و سلوكاً وتوجهات، قبل ان يبرز فجأة في ذلك الدور المنسوب له مخترقاً و على غير مألوف ، البنية الفكرية السياسية للمسلمين " في المدينة " و الامصار . فقد اكتفت الرواية بوصفه أنه " كان يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقّل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام، فلم يقدر على مايريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم ان عيسى يرجع و يكذّب بأن محمداً لايرجع . و قد قال الله عز وجل (**إن الذي فرض عليك القرآن لَرَادك إلى مَعَاد**) [1] .

و قال لهم بعد ذلك :" إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد ، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء و علي خاتم الاوصياء. وقال بعد ذلك "من أظلمُ ممن لم يجزِ وصية رسول الله (ص) ووثب على وصيّ رسول الله (ص) . وتناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك : إن

---

[1] سورة القصص الآية ٨٥

عثمان أخذها بغير حق ، و هـذا وصي رسـول الله (ص) ، فـانهضوا في هذا الامر فحرّكـوه ، و ابـدأوا بـالطعن علـى أمرائكـم ، وأظهـروا الامـر بالمعروف و النهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم الى هذا الأمر"[1]

هذه مجمل افكار ابن سبأ في القسـم الاول مـن الروايـة و هـي تركـز على قضايا أربع رئيسة :

١- فكرة الرجعة بالنسبة للرسول محمد.

٢-التأكيد على حق علي بالخلافة كوصي للنبي

٣- الطعن بعثمان الذي تولى الخلافة بغير حق .

٤-التحريض على الثورة.

و لم يكتفِ ابن سبأ -ودائماً حسب الرواية - ببثّ هذة الأفكـار ، وإنمـا يسعى إلى الترويج لها في الامصار ، حيث أصاب على ما يبـدو شـيئاً من النجـاح في مصـر ، كونهـا أقـل تـأثراً بالعصبيـات القبليـة مـن الامصـار الاخرى. فأخذ يستنهض أهلها ، الامر الذي أثمر بعـد وقـت قصـير عـن موقف كان الأكثر تطرفاً ضد الخليفة عثمان . و لكن المؤرخ لا يدع مثل هذة الرواية قبل أن يجابه أسئلة لابد من طرحها في هذا السياق :

---

[1] الطبري ج ٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١

١- كيف استطاع هذا الرجل وهو حديث العهد جداً بالاسلام ، أن يصل على ذلك النحو من السرعة الى الموقع الذي صار اليه ، متحدثاً بأمور تمس عمق المعتقد الديني ، و بالتالي الانتقال بالسرعه نفسها الى قيادة التيّار المناهض للخليفة على كامل مساحة الدولة الراشدية.

٢- هل كان ابن سبأ يقوم بهذة الحركة بحافز اصلاحي ام بحافز تضليلي انطلاقاً من خلفيته اليهودية ، و استطراداً هل كان يتحرك عبر قناعات خاصة به ، أم أن قوة خفية كانت تخطط وراءه وتدفع به الى الواجهة .

٣- علاقته بعلي ! كيف بدأت ؟ و لماذا كان الانحياز له؟ هذا ماتجاهلته رواية سيف و لم تلمح اليه أية رواية أخرى . فقد كان لعلي أنصار كثيرون ،متحمسون لحقّه بالخلافة ، فلم جاء التركيز على شخصية من خارج النخبة التي عمل على استقطابها و استمد منها حضوره المعنوي البارز في ذلك الوقت ؟.

٤-هل كان ابن سبأ فعلاً هو الموجّه للتيار "الاصلاحي" المعارض لعثمان؟. و هذا يعني لو قبلنا به ، أننا نلغي تلك المقدمات التي كانت سابقة على حركته . فالرواية التي تتحدث عن انتقاله الى مصر ، تندرج في العام الخامس و الثلاثين للهجرة ، فيما كانت حركة أبي ذر الغفاري في العام الثلاثين منها. و بعدها بثلاثة أعوام قامت حركة الاشتر النخعي

في الكوفة ، متصديةً لوالي عثمان ، سعيد بن العاص ، وسياسته الاقتصادية بشكل خاص [1] .

٥- هل كان هذا الداعية ، و انطلاقاً من الرواية، شخصية خرافية اصطنعها خيال سيف لاضفاء عنصر جديد على روايته ، يميزه عن غيره من الاخباريين الذين خلت رواياتهم من أية اشارة لها، أم أنها شخصية انتهازية توخّت ركوب موجة السخط على عثمان، و صولاً الى أهداف لم يتح ذلك العهد تحقيقها ؟ ...

هذة الأسئلة - عدا الشك الذي تثيره - حول شخصية ابن سبأ وقدرته " الفائقة" على الدخول في نسيج المجتمع الاسلامي في ذلك الوقت، فإنها تكشف ضعفاً في رواية سيف ، بإهمالها نقطة أساسية وهي أن يتاح لإبن سبأ ، ولمّا يكن قد مضى سوى القليل من الاعوام على اسلامه، التصدّي لمسائل كانت ما تزال من شأن النخبة أو من يُسمون بذوي السابقة . ولا يتوقف الامر عند هذا الحدّ، فهذا الرجل " الخارق" -وفقاً لما جاء في القسم الثاني من الرواية - يصبح له جهاز تنظيمي متقن، و دعاة منتشرون باسمه في الامصار ، مما يذكّر بجهاز الدعوة العباسية التي احتاجت الى سنوات طويلة لتنظيم نفسها على ذلك النحو .

---

[1] الطبري ج٤ ص٣١٨

تتابع الرواية فتقول : " بثّ (ابن سبأ) دعاته ، و كاتب من كان استفسد في الامصار و كاتبوه و دعوا في السّر الى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الامر بالمعروف و النهي عن المنكر و جعلوا يكتبون الى الامصار يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصفون ، فيقرأوه أولئك في امصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الارض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ويُسرّون غير ما يبدون "[1] .

هذه "الدعوة السرية" يبدو ان شيئاً من أخبارها قد تسرّب الى عثمان، فأشار عليه المقرّبون أن يبعث رجلاً ممن يثق بهم الى الأمصار لاستطلاع الأمر. فانتدب محمد بن سلمة الى الكوفةوعبد الله بن عمر الى الشام ، وعمّار بن ياسر الى مصر و أسامة بن زيد الى البصرة ، فرجعوا جميعاً دون ملاحظة ما يريب ، باستثناء عمار الذي استماله القوم "ومنهم عبد الله بن السوداء"[2]

و تنتهي الرواية عند هذا الحدّ ، فلا تشير إلى ماكان من أمر عثمان إزاء هذة الحركة التي تؤلب عليه اهل الامصار وتدعوهم الى

---

[1] الطبري ج ٤ ص٣٤١

[2] ابن سبأ . المكان نفسه

اسقاطه.ولعل ما يستوقفنا في هذا السياق ، تلك السرية التي أحاطت بها نفسها ، في وقت كانت الاصوات مرتفعة في الاحتجاج على عثمان ، والقيادات في الأمصار تتأهب للقدوم الى المدينة .وهذا الواقع لم يخف على الرجل القوي في البيت الاموي ، معاوية بن أبي سفيان ، الذي ترقب سقوط الخليفة : " والله يا أمير المؤمنين لتغتالن او لتغزين" استناداً الى رواية ثانية لسيف[1] .

ذلك أن والي الشام ، و قد رأى صعوبة انقاذ الخليفة في ظل النقمة الواسعةالتي استهدفته ، دعاه أبّان اجتماع الولاة في المدينة (٣٤هـ) للانتقال الى الشام :" قبل ان يهجم عليك من لاقبل لك به ، فان اهل الشام على الأمر لم يزالوا[2]". وإذ رفض عثمان " بيع جوار رسول الله (ص) بشيء"[3] فقد تعهد معاوية إرسال جنود لحمايته ، ولكن من غير أن يفي بعهده ، مما جعل الخليفة فيما بعد ، يواجه مصيره وحيداً ودونما تدخّل لمصلحته حتى من الجانب الاموي .

و هكذا فإن " الفتنة " التي اطاحت عثماناً ، كان اكثر من طرف ضالع فيها ، بدءاً من قادة الكوفة الذين عانوا تسلط الولاة وتهميش

---

[1] الطبري ج٤ ص٣٤٥

[2] المكان نفسه

[3] المكان نفسه

هؤلاء لهم ، وصولاً الى مصر ، حيث كان لمحمد بن ابي بكر الذي عينه عثمان والياً عليها ثم تراجع عن قراره ، دور بارز في قيادة الحملة على الخليفة . و لم يكن معاوية خارج هذة الدائرة ، بدفعه الأمور الى المأزق في المدينة ومتحفزاً للانقضاض عندما تسنح الفرصة بذلك . ومن اللافت أن قادة الأمصار بعد و صولهم الى المدينة وسيطرتهم على الوضع فيها خلال أربعين يوماً من الحصار للخليفة ، لم نعثر خلال هذا الوقت على أي أثر فيها (المدينة) لعبد الله بن سبأ ، و لم نجد في الروايات ، بما فيها تلك المنسوبة لسيف ، ما يوحي بأي اتصال له مع هؤلاء القادة .

قد يكون السبب أن ما توخاه ابن سبأ قد وصل اليه وهو اندلاع الفتنة بين المسلمين ، فتراجع الى الظلّ ، مؤدياً دوره على أتّم وجه . ولكن هل كانت الدعوه الى عليّ الذي توجهت اليه الأنظار كبديل أساسي بعد عثمان ، تندرج في سياق هذة "الفتنة" ؟ فالجواب على ذلك دونه الكثير من الغموض الذي لم تستطع تلك التطورات تبديد شئ منه. فلعله (ابن سبأ) خاض " معركته" تحت ستار هذة الدعوة ، لتسويغ حركة " التضليل " التي قام بها و جذب الانصار اليها . و الجواب مرة أخرى ، أن دوره - إن صح و جوده - لم يمت بصلة الى التحرك الذي كان عليّ يقوده في تلك المرحلة و الذي صبّ أساساً في اتجاه المحافظة على مركز الخلافة ، والعمل على إنقاذها من السقوط . ذلك أن علياً

الذي أعدّ نفسه لهذا الموقع بعد وفاة الرسول ، ورأى انطلاقاً من عدة اعتبارات، أنه مؤهل لقيادة الأمة ، أصبح زاهداً بالخلافة بعد هبوب تلك الفتنة و ما تحمله من رياح عاتية تهدد وحدة المسلمين. و لكن مخاوفه نفسها عادت فألقت به في ذلك الخضمّ المائج ، خصوصاً بعد انكفاء البقية من الصحابة ، و لم يجد بداً من مواجهة الدور الذي تطلّب رضوخاً أمام المحنة ، و قيل أنه استجاب للبيعة أمام الحاح قادة الأمصار ، وفي طليعتهم الاشتر ، استناداً الى رواية يذكرها الطبري[1] .

كانت تلك الحلقة المركزيةفي رواية سيف عن عبد الله بن سبأ والتي اندرجت في العام الخامس و الثلاثين للهجرة ، حين بلغت الأزمة ذروتها في المدينة . فوجد هذا الداعية " الدخيل" - كما توحي الرواية - فرصته النادرة للتحرك و ركوب الموجة التي أخذت تتسع ، فيما الخليفة المتداعي موقفاً ، يضيق المدى من حوله وينتهي صريعاً في صخب العاصفة .

وعلى الرغم من أن الخاتمة لم تحمل الكثير من المفاجأة ، فإن مقتله على ذلك النحو شكّل سابقة خطيرة في تاريخ الاسلام ، إذ فقدت الخلافة هيبتها ، و لم يتورّع المغامرون فيما بعد عن الانقضاض عليها ، مقتبسين الاسلوب نفسه حين تتعارض مصالحهم مع الخليفة .

---

[1] الطبري ج٤ ص ٤٢٩

و لكن هل كان للسبئيين دور في قتل عثمـان ؟ ..... هـذا نطرحـه من باب الشك فقط ، خصوصاً و أن " اتهام" محمد بن ابي بكر بذلـك ، أضفى شيئاً من اللبس على هذة المسألة . لقد شاعت " التهمة" في الواقع لدى بعض المؤرخين ، بناءً على أن محمداً كان مـن اواخـر الذيـن دخلـوا على عثمان قبل اغتياله. بيد أن القارئ بدقة تفاصيل ذلك اللقـاء الاخـير، لا يجد معطيات كافيه - سوى التحريض- ترجح هذا الاتهام ، إذ جـرى ما يشبه العتاب - و إن كان حاداً بين الاثنـين - خـرج علـى اثـره محمـد "منكسراً" ، حسب رواية الطبري[1] . في هذا الوقـت كـان " المصريـون"[2] يُحكمـون حصـارهم علـى مـنزل الخليفـة ، و يتسلّق أحدهـم "السـور" (سودان بن حمران) فيصرعه حسب الرواية نفسها[3]

ولو عدنا الى ما رواه سيف عن دعـوة ابـن سـبأ في مصـر - حيـث حققت ربما من النجاح أكثر من بقية الامصار- لأمكن القول - من باب الافـتراض فقـط - أن السـبئين تسـلّلوا في الوقـت الملائـم الى صفـوف "المصريين " الذين وضعوا حداً للحصار بقتل الخليفة. ولعل رواية " خليفة ابن خياط " تعزّز هـذا الاتجـاه ، إذ تنسـب الى الحسـن بـن علـي قـولاً في

---

[1] الطبري ج٤ ص ٣٩١

[2] المصدر نفسه ج٤ ص ٣٨٨

[3] المصدر نفسه ج٤ ص ٣٩٤

معرض الردّ على سؤال ، اذا كان فيمن قتل عثمـان أحـدٌ مـن المهـاجرين والانصار ؟ "قال: لا كانوا اعلاجاً من أهل مصر"[1] . ولكن الطريقـة الـتي تّم بها اقتحام دار عثمان ، وما صاحبَ ذلـك مـن انتهـاب لبيـت المـال ، ترجّح النمط البدوي الذي اندرجـت فيـه قبيلـة قـاتل الخليفـة ، و بالتـالي يصبح التأثير الخارجي ضعيفاً في هذة العملية التي ألفت مثلهـا القبـائل في "الايام" السابقة على الاسلام .

وإذا خرجنا من هذة الحلقة الاساسية في رواية سـيف لنتـابع أطرافهـا في تلك المرحلة ، فلا بدّ لنا من العودة سـنوات خمـس الى الـوراء ، حـين وردت أول اشـارة عـن ابـن سـبأ في العـام الثلاثـين للهجـرة ، في سـياق الانتفاضة التي قادها أبو ذرّ الغفاري ضد الخليفة عثمان . و في مقدمـة مـا يعنيه ذلك أن حركة المعارضة انطلقت من المدينة ، وعلـى يـد واحـد مـن النخـب في الاسـلام الأول ، و أن عبـد الله بـن سـبأ التحـق بداعيتهـا في الشام ، راكباً الموجة تحت ظله ، وضاربـاً علـى وتـر القضيـة الأسـاس في خطابه ، حين بادر - حسب الرواية - بقوله:" يا أبـا ذرّ . ألاتعجـب الى معاوية ، يقول : المال مال الله ! ألا ان كل شئ لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين"[2]

---

[1] تاريخ خليفة بن خياط ج١ ص١٩٢

[2] تاريخ خليفة بن خياط ج١ ص١٩٢

لقد أصاب ذلك الهدف الرئيس عند الغفاري الذي كان يرفع شعاره في هذا الاتجاه ، منددّاً بأستئثار عثمان بالأموال التي يراها الخليفة أموال الله ، انطلاقاً من مفهومه للسلطة ، بأنها أيضاً " سلطة الله ". فأتى الغفاري معاوية و قال له : "ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله ! قال (معاوية) : يرحمك الله يا أبا ذّر ، ألسنا عباد الله ، و المال ماله ، و الخلق خلقه ، و الامر أمره . قال (أبو ذّر) : فلا تقله . قال (معاويه) : فإني لا أقول : إنه ليس لله و لكن سأقول : مال المسلمين"[1].

و لعل معاوية في ردّه المرن على أبي ذّر ، إنما يكشف عن أبعاد رؤيته الواقعية في السياسة ، والتي كانت أساس مشروعه القائم على التوفيق بين الاسلام و الصيغة القبلية المتوازنة ، و هذا ما دفعه الى تفادي الصدام مع الصحابي الكبير ، تاركاً البتّ بقضيته الى الخليفة .

وهكذا فإن الغفاري الذي قاد حركة التصويب لمسار الحكم في الاسلام ، خالجه الشك ، وهو الصحابي القديم ، بهذا الوافد عليه . فقد اشتبه به أبو "الدرداء" - و كان مع أبي ذر - وقال له : "من أنت ؟ أظنك والله يهودياً"[2]. وبعد ذلك تتابع رواية سيف ، محدّثةً عن الغفاري

---

[1] الطبري ج٤ ص٢٨٣

[2] الطبري ج٤ ص٢٨٣

و تنديده بالاغنياء ، وتحريضه الفقراء عليهم ، حتى " ولع "[1] به هؤلاء ونازعتهم نفوسهم الى التمرد فضاق به معاوية و أعاده الى المدينة ، ومنها قام الخليفة بنفيه الى الربذة حيث توفي فيها . أما ابن سبأ ، فقد تجاهلته الرواية تماماً ، دون أن تشير في الوقت نفسه الى موقف معاوية منه، خصوصاً وأن ثمة من جاء به الى معاوية محذّراً : " هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر"[2] .

ويغيب " السبئي " سنوات ثلاث عن رواية سيف ، حتى يعود الى الظهور مرة أخرى في سياق حملة التأديب التي استهدفت في ذلك العام(٣٣ هـ) قادة المعارضة في الكوفة و البصرة . فقد فشل ولاة عثمان في حملهم على الاستكانه ، مما دفع الخليفة الى إحالة هذة المهمه الى معاوية الذي قام بها على أكمل وجه . وجاء في الرواية أن رجلاً من عبد القيس وهو حُكيم من جبلة " أفسد في الارض ... فشكاه أهل الذمة و أهل القبلة الى عثمان ، فكتب الى عبد الله بن عامر (والي البصرة) أن احبسه و من كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً، فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها . فلما قدم ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) نزل عليه و اجتمع اليه نفر ، فطرح لهم ابن السوداء و لم يصرّح ،

---

[1] المكان نفسه

[2] الطبري ج٤ ص ٢٨٣

فقبلوا منه واستعظموه ، وأرسل اليه ابن عامر ، فسأله :ما انت ؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الاسلام و رغب في جوارك ، فقال : ما يبلغني ذلك ، أخرج عني ،فخرج حتى أتى الكوفة ، فأُخرج منها فاستقر في مصر و جعل يكاتبهم و يكاتبونه " ويختلف" الرجال بينهم"[1] .

و لعل ما يدعو الى الغرابة هنا ، أن يتحرك ابن سبأ بمثل تلك الحرية ، ويجوب دونما عائق الولايات ، ناشراً أفكاره ضد السلطة التي كانت متشددة في ملاحقة المعارضة ، كما تبدي لنا من الرواية حول سجن حكيم بن جبلة بتهمة هي على الأرجح سياسية ، وما تبع ذلك من نفي آخرين الى الشام[2]. فهذه السلطة التي ضاقت بحركة الغفاري ، وهو سابق في الاسلام و له موقع معنوي بارز فيه ، نجدها تتصرف بشيء من الليونه مع ابن سبأ ، وهو بعدُ خارج الاسلام أو " راغب " فيه كما عرّف عن نفسه في الرواية . فلقتصرت ردّة الفعل إزاءه على نفيه من البصرة ، على غرارما جرى له في الشام على يدمعاوية فيما بعد[3] . فهل يكون مردّ هذا الموقف الى دافعين ؟ :

---

[1] الطبري ج٤ ص٣٢٦ - ٣٢٧

[2] الطبري ج٤ ص٣٢٧

[3] الطبري ج٤ ص٣٤٠

١- إن أركان الحكم جهلوا تفاصيل الحركة " السرية " التي يقودها ابن سبأ، استناداً الى قول عبد الله بن عامر في الرواية " ما بلغني ذلك " .

٢- إن هؤلاء لم يجدوا فيهاخطراً على "نظامهم" ، كما وجدوا في حركة الغفاري الذي خاطبهم من موقع الاسلام ، بما ينطوي عليه ذلك من إحراج مباشر للخليفة و سلطته " الالهية " ؟ .

وهكذا ، بناءً على هذة الرواية المفردة عن ابن سبأ ، فإن الاخير لم يحقق ما توخاه من نجاح ، لا في مركز الخلافة ، ولا في الامصار الثلاثة (البصرة، الكوفة ، الشام). ولكنه على ما يبدو وصل الى شيء منه في مصر التي أُكره على اللجوء اليها ، ممارساً نشاطه بسرية تامه و بعيداً عن المراقبة المباشرة . و إذا كان من محصَّلات ذلك ،أو من باب افتراضها أن وفد أهل مصر بدا أكثر حدة في معارضته للخليفة عثمان بعد قدومه المدينه، فإن ما حدث في الاخيرة من تطورات خطيرة لم تكن خاضعة كما تبين لمؤثرات مسبقة ، بقدر ما اسهم المناخ الداخلي فيها .ذلك أن قادة الامصار لم يحملوا معهم خطة مبيّته لقتل الخليفة وانما طرأت عوامل جديدة ، جعلت هذا الامر سبيلاً ربما لدى بعضهم للخروج من الأزمة المعقدة. و ثمة ما يمكن التوقف عنده اخيراً في هذا السياق ، وهو علاقة السبئيين بالتطرف الذي أبداه " اهل مصر " إزاء الخليفة عثمان . فأذا رجعنا الى الرواية نجد أن " إخراج " ابن سبأ الى مصر تمّ على يد معاوية

بعد لجوئه الى الشام قادماًمن الكوفة في العام الخامس و الثلاثين للهجرة ، أي في العام نفسه الذي توّجهت فيه وفود أهل الأمصار الى المدينه ... فهل استطاع ، و على ذلك النحو من السرعه ، أن يبّث دعوته في هذا الاقليم ، و أن " يوسع " اتباعه " الارض اذاعة" كما جاء في الرواية[1] ؟.

ومن اللافت أن " السبئي" نفتقده في الحركة التي يُفترض - وفقاً للرواية- أن يكون في مقدمتها و هي التي تطورت الى قتل الخليفة (عثمان) . لعله كان يحيط نفسه بسريه شديده في ذلك الوقت، حتى إذا احتدمت المواجه في البصرة بعد اتخاذها مقراً لمناوأة الخليفة علي- و دائماً و بالاستناد الى رواية سيف - ظهر بقوة كمحرك للفتنه و داعية للحرب على رأس جماعه من المصرين تدفع في هذاالاتجاه[2] .وكانت تلك آخر مرة يتردد فيها ذكر السبئي ، معبرة عنه الرواية بإبن السوداء أو عبد الله ابن السوداء[3] .

ولكن السبئيين كتّيار سيبقى لهم دور بعد نهاية حرب البصرة ، متخذين حيزاً مستقلاً عن الخليفة (علي) . فقد جاء في الرواية : "واعجلت السبئية علياً عن المقام ، و ارتحلوا بغير إذنه ، فارتحل في آثارهم

[1] الطبري ج٤ ص٣٤١

[2] سيف بن عمر ، الفتنه ص ١٤٧

[3] المصدر نفسه ص ١٤٨

ليقطع عليهم امراً إن كانوا ارادوه"[1]. على ان هـذا الـدور بقـي غامضـاً ، و لم يرشح منه ما ينّم عن أي نشاط لهم خلال الوقت الـذي أمضـاه علـي خليفة في الكوفة . فهل يعني ذلك أن دور السبئي انتهـى عنـد هـذا الحـد بعدما أشعل الفتنه و شق وحدة المسلمين ؟ و لكن الايدو غريبـاً لمـن قـام بمثل هذا الدورأن تغفل المصادر التاريخية اخباره بصورة قاطعه ؟ .

إن كثيراً من عناصر الضعف تحيط في الواقع برواية سيف بن عمر عن عبد الله بن سبأ ، مما يعّرضها للشـك مـن منظـور علمـي ، ومـن منظـور المنطق التاريخي نفسه . و كونها رواية مفردة ، بعد اهمال ركام الروايات لهذه الشخصية الغامضة ، يعّزز هذا الشك الذي يُبنى على المقارنه و النقد و التحليل ، وليس على الرفض المبدئي الذي أعلنه مسبقاً بعض المؤرخـين لأسباب خاصة بهم . كذلك فإن الرواية بحّد ذاتها مرتبكة و لاتقـدّم مـن المعطيـات مـا هـو كـاف للإحاطـة بملابسـات الـدور الـذي قـام بـه هـذا "اليهودي" القادم حديثاً الى الاسلام .

وسواء كانت هذة الشخصية موجودة بالفعل، ام أنها تلفيق من انتاج التواتر الإخباري المعقد ، فأن الدور المنسـوب لهـا لايشـكل بنظـر المـورخ العلمي تلك الأهمية التي أحيطت به . وبناء علـى ذلـك فـإن حركـة إبـن

[1] الطبري ج٤ ص ٥٤٣ - ٥٤٤

سبأ، بـالقليل جـداً مـن المـادة حولهـا ، مـن الصعـب اتخـاذ موقـف اكـثر وضوحاً بشأنها ، وهي لا تعدو بالتـالي أن تكـون - إن وجـدت فعـلاً - على هامش المسار التاريخي ، سـواء بالنسـبة للمعارضـة بشـكل عـام ، أو بالنسبة لعلاقتها بعلي والتشّيع بشكل خاص.

القسم الثاني

عبد الله بن سبأ في الدراسات الحديثة و المعاصرة

مدخل

لم تعدم " حركة " ابن سبأ اهتماماً من جانب المؤرخين الذين تناولوا مسار الخلافة الراشدية بشكل عام ، و تطورات الفتنه بشكل خاص . غير أن احداً لم يخض في تفاصيلها بما يلقي الضوء كافياً على خلفياتها وتوجّهاتها ، فضلاً عن النتائج التي اسفرت عنها ، كذلك فإن اختلافاً بين هؤلاء المؤرخين في تقدير حجمها و انعكاساتها على المرحلة . فمنهم من سلّم بها كحقيقة ، او على الأقل كجزء من المسارالتاريخي ، ينطبق عليه ما ينطبق على بقية الأجزاء ، ومنهم من تجاهلها تماماً[1]، أو دفع بها الى موقع ثانوي في أبحاثه[2] ، و منهم من ارتاب بحدوثها[3] و تعامل بحذر مع الروايه التى حملت أخبارها ، و منهم أخيراً من رفضها بالمطلق[4] ورأى فيها مجرد تلفيق تعمّده إخباري لا تتمتع رواياته بالثقة التامة . ولعل ابرز من يمثل الاتجاه الاخير ، مرتضى العسكري الذي يعود له الفضل في طرح هذة المسألة على نطاق واسع . فلم يكتف بالطعن في الرواية و انما

[1] محمد عبد الحي شعبان ، صدر الاسلام والدولة الأموية

[2] هشام جعيط ، الفتنه ، جدلية الدين و السياسة في الاسلام المبكر

[3] طه حسين ، الفتنه الكبرى

[4] مرتضى العسكري ، عبد الله بن سبأ واساطير اخرى

اسقط ذلك على جميع الروايات المنسوبة لصاحبها (سيف بن عمر) ليخلص في النهاية الى ادراجها في باب القصص الذي يقتل "السأم والفراغ"[1] حسب تعبيره . أما رائد المشكّكين بها فهو طه حسين ، ثم انضم اليه مؤخراً بوتيرة ارفع ، هشام جعيط الذي قادته ابحاثه عن الفتنه الى حسم موقفه إزاءها باتجاه الرفض.

ويبقى الاتجاه الداعم لوجودابن سبأوهومتمثل بالأكثريةمن المؤرخين، ومعظمهم ينتمي الى مدرسة لا تعطي كبير شأن للنقد التاريخي،وهي تكادتكون مجرد اقتباس عن مدرسة المؤرخين الاوائل، .بما صاحبها من مؤثرات داخليةوخارجيه اعاقت عنصر الموضوعية في رواياتها.كذلك فإن احتفاظ اصحاب هذا الاتجاه بالرؤية الدينية ذاتها التي سيطرت على اسلافهم،حال بينهم وبين الخروج الى الرؤية العلمية، فتعاملوا مع النّص التاريخي كحقيقة مطلقة،تماماً كما تعامل الاسلاف مع احاديث الرسول،بل ان هذه ربما خضعت للنقد أو التمييز بين الصحيح وبين الضعيف منها،مالم تخضع له الروايات التاريخية التي ظلت جامدة و لم يجر عليها النقد لوقت طويل.ولعل هؤلاء تأثروا بالمرحلة التي أعقبت سقوط الخلافة(العثمانية) في العقد الثالث من هذا القرن ، حين بدأ ظهور عدد

---

[1] المرجع نفسه ص٢٥٧

من المؤرخين و المفكرين ، ممن عاش في وجدانهم رمز الخلافة وما يجّسده من تشبث بالتراث الى حدّ الانفصال احياناً عن الحاضر .

وفي ضوء هذا الواقع جاءت بعض أعمال المرحلة ، مطابقة روحاً ومنهجاً للتراث ، لاسيما المصنفات التاريخية التي التزمت بحرفية النّص ، دون ان تتوغل في اعماقه او تمس عناصر الضعف فيه . و هؤلاء قد يمثلهم حسن ابراهيم حسن و أحمد امين بوجه خاص ، إذ أن كلاهما ، على أهمية ما قدّمه من أعمال ، كان مشدوداً ، ليس فقط نحو التراث ، ولكنه أقام تحت سقفه و تحدث بلغته و احترف اسلوبه . ومن اللافت هنا ان الدراسات التي ظهرت ما بين الثلاثينات و الخمسينات من هذا القرن ، سلّم اصحابها - باستثناء طه حسين - بوجود ابن سبأ و حركته ، فيما اهتزت هذه النظرة لدى المؤرخين المعاصرين الذين كانوا اكثر التزاماً بالقواعد المنهجيه من الجيل السابق . ويعود ذلك الى طبيعة المرحلة الجديدة و ثقافتها و التيارات الفكرية المتصارعه فيها ، مما شكّل دفعاً لحركة البحث العلمي التي كان للدراسات التاريخية نصيب وافر منها .

وستعرض هنا لمجمل الآراء في قضية ابن سبأ ، من خلال أبرز المراجع التي تناولتها ، وذلك بدءاً باصحاب الاتجاه الاول المسلّم بها :

- ١ -

المنحازون الى الرواية

أ- حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي .

يعتبر هذا المؤرخ أن الخلل الذي أصاب الدولة الاسلامية " نتيجة لسياسة عثمان المالية وما أسفر عن ذلك من ظهور طبقة أرستقراطية وطبقة اخرى فقيرة معدمة انشأها عمّال عثمان"[١] ، دفع بالمسلمين الى " التمرد في المدينه وفي جميع الامصار ، فكان هذا الجّو ملاءماً تمام الملائمة و مهيئاً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ ومن لفّ لفه والتأثر بها الى أبعد حّد"[٢] . هكذا يظهر فجأه هذا الداعية ومن دون أي مقدمات تجعلنا على معرفة ما بطبيعة دوره و اهدافه ، فضلاً عن اسباب حملته على الخليفة . وإذا تجاوزنا قناعات المؤرخ حسن بصدد هذه القضية ، فإن منطق الحدث سرعان ما يهتز لديه ، آخذاً به الى التناقض حين يقول : ان الثورة على

[١] تاريخ الاسلام السياسي ج١ ص٣٥٨
[٢] المكان نفسه

عثمان أذكاها "صحابي قديم اشتهر بالورع و التقوى - و كان من كبار أئمة الحديث –و هو أبو ذرّ الغفاري الذي تحدى سياسة عثمان و معاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ ، وكان يهودياً فاسلم "[1] .

والغفاري الذي كان ينتمي اساساً الى تيار مناهض لعثمان منذ بيعته بالخلافة وربما قبل ان يعتنق ابن سبأ الاسلام (تقول الرواية أنه اسلم في عهد عثمان)، من الصعب القبول بأن حركته انطلقت بتحريض من هذا " الداعية اليهودي " . والمؤرخ حسن لايخرج عن اطار روايةسيف ، ولكن كونه ينتمي الى منهج الرواية الخبرية إذا جاز التعبير ، لا يستطيع ضبط الإيقاع في سياقه الذي يبدو مرةأخرى عرضة للاختلال أو التناقض، عندما يعقد الريادة في حركة المعارضة لإبن سبأ و يصفه بـ " اول من حّرض الناس على كره عثمان "[2] ،متجاهلاً ذلك التيار الواسع الذي أخذ يتفاعل فيه هذا الشعور، قبل ظهورالداعية السبئي الطارئ فجأة علىالمدينة. فهو يرى أن عوامل النقمة تفاعلت في نفس أبي ذرّ ، حتى جاء ابن سبأ فعمل على اطلاقها حيث وقع الاول في شرك الثاني ، او استُدرج للوقوع فيه . وهو ما عبّر عنه المؤرخ حسن بقوله : " لقد

---

[1] انظر الكتاب ج١ ص٣٥٨

[2] المرجع نفسه ج١ ص٣٥٩

وجد ابن سبأ .... الطريق ممهدة لخلعه (عثمان) . ولسنا نشك في حسن نية أبي ذرّ ، وما كان من استيائه من عثمان ومن سياسته . فقد كان مصدر استيائه ما كان يعتقده في عثمان هوادة في الدين و تهاون في احكامه ، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ "[1] .

ولعل هذا المؤرخ استبق الأمور و ذهب في اعتقاده بأن حركة الغفاري كانت تدعو الىخلع عثمان ، وهو ما لم يرد على لسان صاحبها أو يلمح اليه على الاطلاق . فقد كانت منطلقاته تصحيحية في الأساس ، و لايرنو من خلالها الى ما يتعدى تصويب مسيرة الخليفة باتجاه العدل بين رعيته. بل أن مثل هذا الهدف لم يراود قادة الأمصار الذين جاءوا بنفس الحافز الاصلاحي الى المدينة ، و لم يجرؤ أحدهم على التفوه بما يشير الى خلع الخليفة ، ذلك الذي جاء فيما بعد نتيجة للأجواء المشحونه في عاصمة الخلافة ، و لم يكن قائماً في وعي الثائرين من قبل .

والمؤرخ حسن يعطي الرواية حجماً قد لا تحتّله لدى الطبري،خصوصاً ما تعلق بدور إبن سبأ في الأمصار : (حقق ابن سبأ ما كان يرمي اليه من تأليب الولايات الاسلامية على عثمان)[2] . وهو امر أوحت الرواية بعكسه ، ربما باستثناء مصر التي وجد فيها على ما يبدو

---

[1] انظر الكتاب ج١ ص٣٥٩

[2] المرجع نفسه ج١ ص٣٦٢

أرضاً خصبة لدعوته ، وذلك لشدة " سخط اهلها على عثمان و على عبد الله بن سعد بن أبي سرح "[1] استناداً الى قول المؤرخ حسن. وهو من هذا المنطلق يكاد يجعل ثورة " المصريين " من نتاج الدعوة السبئية التي اندرج فيما اثنان من أكثر المتحمسين لعلي وهما : محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة[2] . وينسب الى الثاني أنه " قام بتنفيذ الخطة التي رسمها ابن سبأ"[3] ، على نحو يصبح عليّ وكأنه ليس بعيداً عن هذه الخطة التي استهدفت إطاحة الخليفة عثمان وفقاً لتصور هذا المؤرخ .

إن حسن إبراهيم حسن ، وهو الأقرب الى الاتجاه التقليدي في تفسير التاريخ ، تندرج هذه الرواية في كتابه ، شأن بقية الروايات دون ان يخالجه الشك مطلقاً بذلك البروز المفتعل لإبن سبأ في قلب الاحداث . وعلى العكس من ذلك ، فقد اضفى عليها من الأحواء ما أسهم في دعمها وتعزيز حدوثها . و لعله كان أكثر مؤرخي هذا الاتجاه اهتماماً بهذه المسألة، مما يتجلى في الحيز الذي اتخذته في سياق الفتنه ، والتداخل المباشر معها ، خصوصاً في تفاصيلها الاخيرة .

---

[1] المرجع نفسه ج١ ص ٣٦٠

[2] المرجع السابق ج١ ص ٣٦٠ - ٣٦١

[3] المرجع السابق ج١ ص ٣٦٢

ب – أحمد امين : فجر الاسلام – ضحى الاسلام .

لم يقف طويلاً هذا الكاتب عند قضية ابن سبأ ، وهو أمر لم يكن خاضعاً لموقفه من الأخير ،بقدر ما هو مرتبط بالموضوع الذي يخوض فيه، إذ أن أمين يهتّم اساساً بمادة الحضارة الاسلامية ، ولا يعنيه من التاريخ سوى الاطار ، ومن أحداثه إلا الموظفة في خدمة الهدف الذي تتوخاه دراساته ، في الفقه و الأدب و العلوم وما الى ذلك . وهو عموماً يفتقد الى منهج المؤرخ ويجنح عن القواعد و الضوابط فيه ، لاسيما التوثيق الذي تكاد تخلو منه الهوامش، مقتصرة في الغالب على توضيحات لغوية ليس أكثر . على أن هذا الكاتب ، وقد جال في موضوعاته على مساحة التاريخ ، لم يكن باستطاعته الانفصال عنها ، حتى ليُدرج أحياناً بين المؤرخين ، لما يثار حول احكامه من جدل في هذا المجال . ولعل مّرد ذلك، الى أنه قرأ التراث بعيني اديب و ليس برؤية المؤرخ الواقعية ، الامر الذي أخذ به احياناً الى الانحياز و الإنحراف عن الموضوعية المجردة .

وفي ضوء هذا المنهج يتعرض أمين لشخصية ابن سبأ و دعوته في سياق الفصل الثاني من " فجر الاسلام " وتحت عنوان " الشيعة " ، ممهداً لذلك بالحديث عن تكّون فكرة " الوصية " عند هذة الفرقة ، تلك التي

كان برأيه ، عبد الله بن سبأ أول المروّجين لها في دعوته الى " تأليه" علي[1].

ومن اللافت هنا ، أنه لم يعد الى الرواية في " تاريخ الطبري" و التي لم يرد فيها ما يشير الى فكرة التأليه ، بل اعتمد على ما اورده ابن حزم بشأنها، دون ان يكون الاخير وهو فقيه وله في النتيجه موقف خاص ، المصدر الصالح لهذة المسألة . يقول امين : " والذي يؤخذ من تاريخه (ابن سبأ) أنه وضع تعاليم لهدم الاسلام وألّف جمعية سرية لبّث تعاليمه و اتخذ الاسلام ستاراً يستر به نياته ... و أشهر تعاليمه الوصاية والرجعه"[2] وبعد شرح مقتضب للفكرتين الأخيرتين لدى " السبئي " وجذور الرجعه خصوصاً في العقيدتين اليهودية و النصرانيه ، ومن ثم تطورها عند الشيعه الى العقيده"[3] ، يعود الىزّج فكرة " الالوهية " دونما تسويغ لهذا الاستنتاج غير المبني على مادة خاصة بهذا الموضوع . ومن ذلك قوله : " والناظر الى هذا يعجب للسبب الذي دعاه (ابن سبأ) الى الاعتقاد بألوهية علي ، مع أن احداً لم يقل بألوهية محمد (ص). وعلي نفسه يصّرح بالاسلام وتبعيته لمحمد(ص) . والعلة في نظرنا – والكلام ما زال لأمين– أن شيعة

---

[1] فجر الاسلام ص٢٦٩

[2] المكان نفسه

[3] المرجع نفسه ص٢٧٠

علي رأوا فيه من المعجزات و العلم بالمغيبات الشيء الكثير ، و قالوا انه كان يعلم كل شيء ، ووضعوا على لسانه ما جاء في نهج البلاغة : اسألوني قبل ان تفقدوني"[١] .

ولعل هذا الكاتب ، وهو يتحرك في سياق موقف خاص لم يأت مبنياً على الوقائع بقدر ما يعّبر عن افكار لا تنطلق منها في نفسه ، يشكك هنا في نسبة " نهج البلاغة " لعلي ، كما يحمّل عبارته الشهيرة السابقة "اسالوني قبل ان تفقدوني " مغزى الهياً " ليس فيها ، لتسويغ اجتهاده في هذا السبيل . ذلك ان علياً وهو المتصف بإجماع الروايات - بعلم لم يصل الى مستواه احد في زمانه ، ومن ثّم بمعرفة بالاسلام جعلت الخليفة عمر ابن الخطاب يعود اليه في المسائل الصعبه ، انما كان يعّبر عن هذا الموقع في العبارة السابقة ، وليس الى " علم المغيبات " كما اشار الكاتب .

وثمة ما يثير الريب في الواقع هو المنهج ذاته لدى أمين ، بأدراجه هذة المسألة ، على نحو لايخلو من اللبس المتعمد ، إذ يختفي اسم السبئي بعد ذلك ولا يشار الا ضمناً اليه، كما في حديث الكاتب عن التنبئوات قائلاً: "ورووا له أنه أخبر بقتل الحسين و أخبر بكربلاء و أخبر بالحجاج وأخبر بالخوارج و مصيرهم ، وبني أمية و مُلكهم ،و أخبر ببني بويه و أيام

[١] المكان نفسه

دولتهم ، وأخبر عبد الله بن العباس بأنتقال الامر الى اولاده ..."[1].

فهو - أي الكاتب - عدا انه لم يسند هذه الاخبار - الغيبيات الى مصادرها ، فإن المقصود هنا الشيعة الذين اقتبسوا - برأيه - مثل هذة الافكار من العراق ، حيث الاكثريه من هذه الفرقة كون هذا الاقليم "منبع الديانات المختلفة و المذاهب الغريبة " حسب تعبيره[2] .

وفي ضوء ذلك يستخدم احمد أمين شخصية ابن سبأ لإبراز فكرة "الالوهيه " لعلي و الحديث عن "المعجزات" التي زعم أن الشيعة ألصقوها به . بل أنه لم يمّيز بين الشيعة و الغلاة منها،و الذين آمنوا بمثل هذة الأفكار في وقت متأخر عن المرحلة التي يخوض فيها الكاتب . ومن هنا فهو لايضيف جديداً الى هذة المسألة ، بل انه فيما جنح اليه ، ابتعد كثيراً عن موضوعة ابن سبأ ، وترك من اللبس حول الاخير ما كان محاطاً به في الاساس، هذا على الرغم من تسليمه المطلق بوجود هذه الشخصيه .

أما في كتابه الآخر (ضحى الاسلام) فيكتفي من أخبار السبئي ما تعلق بدوره في الشام ، مؤازراً حركة الصحابي ابي ذرّ الغفاري . وقد تطّرق هنا الى الجانب النظري في دعوة ابن سبأ بوصفه " صاحب القول

[1] المكان نفسه

[2] المرجع نفسه ص٢٧١

برجعة النبي الى الدنيا ووصاية علــي علـى الخلافـة"[1] . ثـم يضيـف بشـأن موقف معاويه منه : " بعد أن داراه فأعياه ، فلما يئس منه ومن ترغيبــه او ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه"[2] .

ولعل مثل هذا الموقف يحتاج الى تسويغ لا يتطـابق مـع نظـرة معاويـه الى الخارجين على النظام . ولو عدنا الى الرواية التاريخية لن نجـد فيهـا مـا يشير إلى "مداراة " والي الشام لإبن سبأ ، أو الى يأس الأول من "ترغيب" الثاني قبل اقصائه ، إذ جاءت على هذا النحو : "فلم يقــدر (ابـن سـبأ) على ما يريد عند أحد من اهل الشام ، فأخرجوه حتى اتى مصر"[3] .

وإذ يكتفي أمين بهذا القدر من قضية ابن سبأ ، فأنـه ينصـرف بعـد ذلك الى تتبع أحداث الفتنه ، لافتـاً بشـكل خـاص الى جهـود معاويـة في احتواء قبائل الشام ، بما يّمهد الى مشروع دولته التي انطلقـت مـن عبـاب الأزمه العاصفة بعهد عثمان . وبناءً على ذلك لا يشّكل موقـف الكـاتب من ابن سبأ مادة للنقاش ، سوى انه مـن المسـلّمين بـه و بـدوره الدعـائي لمصلحة علي وتأكيد وصايته على الخلافة . وهو لايختلـف في نظرتـه عـن معاصره حسن ابراهيم حسـن ، إذ كلاهمـا ينتمـي الى مدرسـة واحـدة ،

---

[1] ضحى الاسلام ج ١ ص٢٧١

[2] المكان نفسه

[3] الطبري ج٤ ص ٣٤٠

وهي القائمة على الأخذ بركام الروايات التاريخية ، دون الالتفات إلىميول اصحابها او اكتناه مواقع اللبس فيها ، مع الفارق أن حسن كان يعنيه ، كمؤرخ الجانب الحدثي في الرواية ، فيما كان هاجس امين توظيف الجزء المناسب منها في مادة لاتخلومن افكار، ربما كانت "جاهزة" لديه من قبل .

ج- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الاسلامي .

يبدأ هذا المؤرخ متناقضاً مع نفسه ، فيرى أن "حِلم " عثمان و"حياءه" شجعا على الفتنه[١]. ثم يّتحول بعد ذلك منتقداً بقوة - وإن بصورة غير مباشرة- الخليفة (عثمان) الذي توكأ على تراث سلفه واستمد منه الوهج خلال النصف الاول الهادئ من عهده : "وسارت الامور في السنوات الاولى من خلافة عثمان ، مدفوعة بالقوة التي بذلها ابن الخطاب وظّل الضوء الذي اشعله عمر ينير للناس ، ولكن الخليفه الجديد لم يمّد المصباح بالزيت ، فلما أوشك الزيت ان يّجف بدأ الظلام يدخل ...(و) بدأت الدولة تهتز وأخذت المشكلة تستعصي.، وتقدم

---

[١] موسوعة التاريخ الاسلامي ج١ ص ٦٢٥

الناصحون للخليفة يطلبون منه الاعتزال و الراحة ، ولكــن الخليفـة صـاح بهم قائلاً: كيف اخلع قميصاً البسنيه الله"[1] .

وليس الغرض هنا الدخول في تفاصيل الفتنه ، وانمـا الـذي استوقفنا هو ذلــك الخلـل في منهـج المؤرخ شـلبي الـذي تخونـه الحبكـه فيوغـل في التناقض ، وإذا بالثورة ليست من محصلات الفترة الثانية من خلافة عثمان أي بعد ان جف الزيت من المصباح حسب تعبيره، وإنما تصبـح كامنـه في النفوس منذ عهد الخليفة عمر . هذا ما ينضح بـه قولـه علـى الاقـل حـين يتابع تقويمه للمرحله : " وليس معنى هـذا أن أعمـال عثمـان الـتي سـببت حنق الناس و غضبهم ، لم تظهر الا بعد ست سـنوات مـن حكمـه ؛ لا، فقد ظهرت في اللحظات الاولى ، ولكنها كـانت اشـبه بـالمرض يـدب في الجسم السليم فيقاومه الجسم[2] " .

وهكذا بدلاً من توضيح الصورة ، إذا بالأخيرة تحجبها الغيــوم آخـذةً معهـا التفـاصيل المعروفـة ، علـى نحـو مـا اورده المـؤرخ شـلبي عـن تقـدم "الناصحين " للخليفه طالبين منه التنازل عن الحكــم . ذلـك أن هـؤلاء لم تراودهم هذة الفكرة التي جاءت وَليـدة التطـورات الاخـيرة بعـد الحصـار لدار عثمان . فهل كان علي الاكثر " نصحاً " للخليفة ، ممن خاطبه بهذا

---

[1] المكان نفسه

[2] المكان نفسه

الامر ؟ هذا ما لم تشرْ اليه مطلقاً الروايات التاريخية. وعلى العكس من ذلك كان من اهدافه الاساسية (علي) إبّان تدّخله في الأزمه ، تفادي الوصول الى هذا الخيار ،حرصاً منه على موقع الخلافة التي ستصبح – لوحدث ذلك – تحت رحمة المغامرين و الطامحين الى النفوذ . و المؤرخ شلبي لم ينفِ هذا الواقع ، معترفاً في الوقت نفسه أن عثمان قد تّورط في الخّط الذي سار فيه ، و بدا فاقداً القدرة على الحوار الفعلي مع الجماعه الاسلامية ، بل ومتبرماً من توّسط عليّ بينه و بين الثائرين. يقول هذا المؤرخ : "وكان علي كلما اشتكى الناس اليه أمر عثمان ، أرسل ابنه الحسن اليه . فلما اكثر عليّ عليه قال له عثمان : إن اباك يرى أن احداً لا يعلم ما يعلم ، و نحن اعلم بما نفعل فكّف عنا ، فلم يبعث عليّ ابنه في شيء بعد ذلك"[1] .

و على الرغم من هذه الاجواء التي ينشرها المؤرخ شلبي وما ساد فيها من نقمه على سياسة الخليفة و تحّفز للتمرد عليه ، فإنه لا يتردد في تجيير هذه الموجة لرجل لم نر له مكاناً فيها من قبل ، وهو عبد الله بن سبأ . افلا يسقط مرة أخرى في شرك التناقض ؟ قد لانجد صعوبة في اكتشاف ذلك ، لاسيما بعد انتقاله من دون مقدمات الى الحديث عن الدور

---

[1] المكان نفسه . أنظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج٤ ص٢٠٨

القيادي البارز لهذا الرجل ، فيقول: " واشتعلت الثورة ضد عثمان ، وبدأ منظّموها في الكوفة و البصرة ومصر يعلنرن ما كانوا من قبل يضمـرون ، و ظهر مع الثائرين اعلام من الصحابة انكـروا بعـض تصرفـات عثمـان ، فأسرع ابن سبأ ، وهـو الزعيـم الحقيقـي للثـورة ، فـأحتذبهم او احتـذب آراءهـم اليه لتقوى بهم حجته و ترجح كفته ، ومن هؤلاء الصحابه : ابـو ذرّ الغفاري وعمار ابن ياسر و عبد الله بن مسعود"[1] ثم يضيف في هـذا السياق قائلاً : " و عبد الله بن سبأ هو الشـخص الـذي نقـل الثـورة مـن الكلام الى العمل ، و لم يكن ابن سبأ مخلصاً في حركته ، فقد كان يهوديـاً ادّعى انه دخل الاسلام و لم يكن يضمر للإسلام و لا للمسـلمين خـيراً ، فانتهز هذة الفرصـة ليشـعل الفتنـه و يـنزل بالعـالم الاسـلامي نـاراً ظلّـت متأججة عشرات السنين"[2] .

وهكذا يمضي المؤرخ شلبي في اسناد هذا الدور البارز لإبن سبأ الـذي اخترق - كما صوّره- صفوف الصحابة وشدّهم الىافكاره و الىزعامتـه، وهو اليهودي المدّعي للاسلام . كما يضفي على حركته نكهة " فارسيه" عندمـا يقـوم (أبـن سـبأ) بالـترويج لقضيـة علـي ووصفـه بأنـه " خـــاتم

[1] المرجع نفسه ج١ ص ٦٢٥ - ٦٢٦

[2] المرجع نفسه ج١ ص ٦٢٦

الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء"[1] ، انطلاقاً من تأثره-حسب رأي المؤرخ - بالفكر الفارسي في موطنه الأصلي باليمن[2] التي كان يحكمها عشيه الاسلام " الأبناء" الفرس . أما هدفه (ابن سبأ) فهو ضرب الاسلام من خلال الدعوة لشخصية تتمتع بالثقة (علي)، وجمع العدد الأكبر من المسلمين حوله. فلما رفض علي الانسياق في الثورة على عثمان و تصدى - حسب المؤرخ شلبي - " للجموع الساخطه وشرح لهم أن أي اعتداء على الخليفة هو اضعاف للأسلام و تفرقة للمسلمين .... ادرك ابن سبأ أنه هُزم وأن الفرصة التي عمل لها سنوات أوشكت ان تضيع ، ولذلك اعمل الحيلة و دبّر أمره ، فيروى أن الثائرين حال عودتهم رأوا رجلاً اسود يمشي على بعدٍ منهم و أنه يحاول ان يختفي عنهم،فشّكوافي امره،فلحقوا به وقبضوا عليه وفتشوه، فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان،وفي الخطاب أمرلوالي مصرأن يقتل هؤلاء الثائرين"[3]

ومن اللافت أن شلبي يقتبس هذة المعلومات عن المستشرق الالماني بروكلمان[4] ، في حين ان الطبري الذي ذكر تفاصيلها انطلاقاً من رواية

---

[1] المرجع نفسه ج١ ص ٦٢٧

[2] المكان نفسه

[3] المكان نفسه

[4] المكان نفسه

سيف ، لم يشر الى هذا " الرجل الأسود " الذي " اكتشف " فيه المؤرخ شخصية ابن سبأ (ابن السوداء في المصادر). فقد جاء في الرواية : " ثم رجع المصريون راضين فبينا هم في الطريق إذا براكب يتعرض لهم ثم يفارقهم ، ثم يرجع اليهم .... قالوا له مالك؟ إن لك لأمراً ! ما شأنك ؟ قال : أنا رسول امير المؤمنين الىعامله بمصر ، ففتشوه ، فأذا هم بالكتاب على لسان عثمان،علية خاتمه الىعامله بمصر ان يصلبهم اويقتلهم" الخ[1] ..

وهكذا يّتصرف شلبي بالرواية ويخُضعها لمصلحة ذلك الدور "الاسطوري" الذي قام به السبئي " الخارق "، في قيادة الجموع الساخطة على عثمان. فهو ليس موّجِهاً عنده للثورة او متصدراً لها فقط، وإنما هو حاضر كذلك في تفاصيل خطوطها ومنفّذ في الوقت نفسه لدقائق مهماتها . و من الطريف ايضاً انه - اي الشلبي - في احد الهوامش ، و في محاولة للتخفيف من اندفاعه في تضخيم الدور الذي تبوأه ابن سبأ ، يلجأ الى الفصل بين " الشيعة الحقيقين وبين مدّعي التشيع"[2] الذين انحرف بهم الداعية اليهودي . وفي هذا المكان يتعرض لكتاب مرتضى العسكري وما ذكره من اختلاقٍ لرواية سيف ، الا أنه يتفادى الرّد المباشر عليه ، وينتهي الى ترسيخ اعتقاده بوجود ابن سبأ ، مكتفياً بمناقشة الاسم الذي حمله

---

[1] الطبري ج٤ ص ٣٥٥

[2] موسوعة التاريخ الاسلامي ج١ ص٦٢٦

الاخير إذا كان صحيحاً او مفتعلاً ، وكأن العسكري لا يبغي سوى هذه المسألة بالذات . فهو يقول بشيء من الحسم في هذا الصدد : " فأنا اقـرر هنا أن ضالة بدأت هذا الشوط هي عبد الله بن سبأ أو شخص مـا أُطلـق عليه هذا الاسم ، وأن مريدين كثيرين أخذوا عنه هـذا الضـلال و سـاروا فيه أزمنةطويلة و أشواطاً واسعه .فالاسم لا يهمنا ولكن يهمنا أن شخصاً قام بالدور الذي نسب الى عبد الله بن سبأ وأن اشخاصاً قـاموا بـالادوار التي تنسب للسبئيين و لأعداء الشيعة واعداء الاسلام"[1].

د – عبد الفتاح عبد المقصود : الامام علي بن ابي طالب .

من المعروف أن هذا الكتاب الـذي استمد شـهرته مـن أن صاحبـه شيخ أزهري ، و في نفس الوقت معجب حتى الأفتتان بشخصية علي ، لا يمّثل دراسة علمية موثقة ، وإنما هو اقرب الى الروايـة التاريخيـه ، حيـث تتوفـر عناصرها الفنيه الاساسية أو الكثـير منهـا فيـه ، دون أن ننسـى الاسـلوب الشائق الذي يرتقـي أحيانـاً الى مسـتوى الجملـة الشعريه الآخـذة . و في ضوء ذلك لا تصطدم شخصية ابن سبأ بأي عـائق ، للدخـول في نسيج

---

[1] المكان نفسه (هامش <١>)

السياق على مساحة جزء من الكتاب، و سرعان ما تفرض نفسها كشخصية بارزة بين أبطال " الرواية " .

ولكن " الشيخ " إذ يعيد صياغة النص التاريخي بأسلوبه الخاص ، تفادياً لما يعّكر الانسياب فيه ، فأنه يلتزم بجوهر النص و لاينحرف عنه، على نحوٍ تصبح التفاصيل كاملة في حوزته ،كذلك الأجواء المحيطة بالحدث واضحة لا يشوبها غموض . وفي البصرة يكون " المشهد " الأول حيث " بقيت فترة من الزمن خامدة كالرماد تنتظر الاصلاح المنشود .... أجل ففي هذة الناحية من الدولة الاسلامية ظهرت أقوى الحركات الهّدامة في تاريخ الاسلام . جاءت كالسموم على يد اسود من أحدى الدويلات التي أنفت حتى في ايام النبي أن تخضع لحكم البلاد المقدسة وحاولت أن تخلع سيادتها لولا أن قهرها أبن ابي طالب على الطاعه ... من اليمن جاءت ، وعلى لسان ابن السوداء عبد الله بن سبأ سالت كالسم . وانطلق بها الرجل الى الحجاز يّهم أن ينّثها ، لولا أن وجهّه ذكاؤه الى بلد أكثر تقبّلاً للدعوه من مهد الدولة و أبعد عن أيدي الخليفةو أعوانه بالمدينه أن تمتد اليه . فقد كان ابن سبأ خبيراً بنفوس الناس ، عالماً بنواحي

الضعف التي يستطيع أن ينفذ منها اليهم ، ملّماً بأحوال البلاد التي انتظمها الاسلام تمام الالمام فعرف أي تربة من بينها يمكن ان تنمو فيهابذوره"[1] .

ولعل "الشيخ" ، وإن تمرّد على نهج سربه متفرّداً بذكر النبي من دون الرمز المألوف المضاف - خصوصاً لـدى الشيوخ - الى اسمـه، فأنـه يلتزم بروح النص التاريخي ، متأثراً هذة المرة بطريقة أقرانه عندما يسوق الحدث على انه حقيقة لا يشـوبها ريـب . وإذا كـان مـن غريـزة المـؤرخ ، ربـط الوقائع ببعضها ، فإن الشيخ الـذي توخـى دائمـاًإبراز شـخصيته - محـور الموضوع، ربما تورّط في زج عليّ في هذا السياق ، إذ على المؤرخ حينئذٍ أن يتساءل إذا كان عبد الله بن سبأ قد عرف شيئاً عنه (علـي) ، خـلال المهمة التي قام بها لحمل اليمنيين (قوم ابن سبأ) على الطاعـة ، ممـا دفـع الأخير الى التأثر به ، ومن ثم الدعوة له كوصي للنـبي بعـد فـترة قصـيرة ؟ ولكن "الشيخ" سرعان ما يبتعد عن هذا الظن ، ليؤكـد أنـه غـير مـأخوذ بفضول المؤرخ ، فيتابع محاولة اختراق الداعيه - الذي " خلع ثيـاب دينـه القديم و أظهر الدخول في الاسلام"[2] - لمجتمع المدينـه و لكـن "دعوتـه - والكلام للشيخ - إن جازت على بعض النفوس في الحجاز ، فلـن تكـون لها مطلقاً حياة لو أن ابن ابي طالب فتح شـفتيه ، ومـا كـان لـه أن يـأمن

---

[1] الامام علي ج١ ص ٦٠ - ٦١

[2] المرجع نفسه ج١ ص٦٣

علياً السكوت ، فضلاً عن موافقته و رضاه ، لأن خلقه الكريم حرّي بأن يثيره على الدعوة و يدفعه لحربها باللسان و بكل سلاح ، وإن كانت في ظاهرها قد جاءت لتضع في يديه السلطان"[1].

وهكذا تصبح البصرة المنطلق الفعلي لإبن سبأ ، يشجعه على ذلك وجود وال لا ينظر اليه أهلها بارتياح وهو عبد الله بن عامر . فكانت ارضاً خصبة - برأي الشيخ - لبّث افكاره الهّدامه " عازماً امره على تقويض بنيان الدولة الاسلامية"[2]. وسرت دعوته كالسحر بين المسلمين في البصرة ، فكاد الزمام يفلت من يد الوالي الذي تنبه أخيراًلخطورته، و لم يجد بداً من نفيه والتخلص من هذا"الوباء"الذي انتشر سريعاً في ولايته .

و "المشهد" الثاني في الكوفة جاء مقتضباً ، لأن واليها (سعيد بن العاص) وقد اتعظ بتجربة البصرة ، لم يلبث ان طرده (ابن سبأ) ، ليمضي الاخير " بوفاضه المليئ بالخبائث الى الشام ، الأرض التي احتواها معاوية في قبضته"[3]. فما كاد يباشر التحرك حتى كان خارج الولايه الهادئه ، آخذاً طريقة الى مصر . و " المشهد " الثالث الاساسي كان هناك، حيث- و الكلام للشيخ - " انتهى المطاف بالسبئية ، فحّط

---

[1] المرجع نفسه ج١ ص٦٣

[2] المكان نفسه

[3] المرجع نفسه ج١ ص٧٢

شيخهم رحاله بمصـر ، وأخـذت دعوتـه تنمـو مـع الزمـن وتهيمـن علـى النفوس المتمردة بكافة الأقاليم الاسلامية ، تنتشر انتشـاراً نامياً علـى يـد الرسل و الرسائل وتمّد سلطانها في البلاد كما تمتد أذرع الاخطبوط "[1].

وعلى هذا النحو تنتهي السبئية فصولاً في كتاب الشيخ عبد المقصـود عن الامام علـي ، متتبعـاً بدقـة مسـارها والمحطـات الاساسـية فيـه ، كمـا وردت تماماً في رواية سيف في تاريخ الطبري . فهـو يعـرض لهـا كحركـة "هدّامه " تستهدف تقويض الاسلام و دولته ، وفي نفـس الوقـت يحـرص على الفصـل بينهـا وبـين علـي، وإن كـانت تعمـل لـه وتكـرس افكارهـا لمصلحته . على ان عبد المقصود ربما جنح الى المبالغة في تصوير الهالة التي اصبحت لها في ولايات الخلافة ، خصوصاً في البصرة التي اثبتت بعد وقت قصير أنها خارج هذا التصـوّر، بدليـل رفعهـا رايـة العصيـان مبكـراً علـى علي. كما ان ما ورد من تهافت الناس على هـذة الدعـوة ، لا تعبّر عنـه مطلقاً الرواية التاريخية ، هذا إن لم يكن متناقضاً معها[2].

وهـذا يعـني أن عبـد المقصـود كـان يحّمـل النّـص التـاريخي أكـثر ممـا يستطيعه ، وذلك اسـتجابةً لمنهـج الكتـاب - الروايـة ، ومـا يكتنفـه مـن صخب ملائم للمناخ " الدرامي " فيه . و هذا الكتاب لا ينـدرج حكمـاً

---

[1] المرجع نفسه ج١ ص٧٤

[2] الطبري ج٤ ص ٣٢٦ - ٣٢٧

في مصاف الدراسات التاريخية التي تقوم على تحليل الرواية وربط عناصرها بصورة دقيقة ، بما يسهّل الوصول الى النتائج العلمية المقنعه . ولن تكون حركة ابن سبأ خارج هذا التقويم ، خصوصاً و أن الكاتب لم يبحث في اسبابها ، بما يتعدى مضمون الرواية التي جاءت طافية على سطح الاحداث و لم تكن في صميمها بالفعل . كذلك لم يتطرق الى نتائجها التي ظلت بدورها غامضة ، على الرغم مما ختم به القول عن الحركة السبئية ، بأنها امتدت في البلاد امتداد " أذرع الاخطبوط " .

هـ – عباس محمود العقاد : عبقرية عثمان .

هذا الكاتب ، وهو مصنف بين افذاذ عصره من كبار الأُدباء والمفكرين ، دخل حلبة الدراسات التاريخية و ترك آثاراً "خالدة" فيما كتبه من سير الخلفاء ، وبعض قادة الاسلام ، وهي التي اندرجت تحت عنوان " العبقريات". وكان ذلك من سمات هذة المرحلة إذ توزعت اهتمامات الكاتب بين الادب و النقد و الفلسفة ، دون أن تنأى عن التاريخ الذي ربما كان الخوض فيه ، منطلقاً من الحافز الديني الى جانب

الرغبة في اعادة قراءة احداثه بصورة أكثر عقلانية مما كان لدى الأسلاف . ولكن اللافت أن المنهج ، وإن اختلف قليلاً لدى كتّاب المرحلة ، فإنه ظل محكوماً برؤية الأديب و لم يلتزم بقوانين البحث التاريخي و شروطة . نستثني من بين هؤلاء طه حسين الذي ربما كان لدراسته (العليا) عن ابن خلدون و المعّري تأثير على منهجه ، فبدا حريصاً على إبراز الرواية و توثيقها ، و التوغل فيها أحياناً كثيرة بنظرة المؤرخ اللمّاحة ووعيه المرهف ، لتجيء أعماله قراءة جديدة بالفعل لبعض المحطات الاساسية في التاريخ سواء في الاسلام أو ماقبله .

تحت عنوان " و بعد الصدمة " يدلف العقاد الى موضوع " الفتنه " التي ظهر في ثناياها عبد الله بن سبأ ، و لكنه في منهاجه يميل الى الاختصار و يؤثر الاهتمام بمعاني الأحداث من دون تفاصيلها التي لاغنى للمؤرخ عن الابحار فيها للقيام بدوره. فالدلالة هي ما يعنيه وليس الحدث بعينه ، و لذلك يسارع الى القول مفسّراً ما جرى في ذلك الوقت على هذا النحو : " وليست الصدمة العنيفة بالحائل الوحيد دون توضيح هذة الفترة و تمحيص اسبابها و عواملها و تبعات المسؤولين عنها ، فالصعوبه الكبرى اننا في هذة الفترة أمام حادثين يرجع كل منها الىاسبابه وعوامله. ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متّعدد الاسباب و العوامل، هذان الحادثان هما : التطور السياسي و مقتل عثمان .

وأسباب هذا لاتكفي لتعليل ذاك ، و ليس من الحتم أن تؤدي اليه . و قد طال الجدل حول عمل عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء و أثره في هذه الفترة . فرأى بعض المؤرخين أنه أهون من ذاك لأنهم اعتقدوا ان الانقلاب السياسي ومقتل عثمان حادث واحد له أسباب واحدة ، وليس هو كذلك . ولو انهم فصلوا بين الأسباب في كليهما لأمكن تقدير التبعة و الاستطاعة في عمل كل عامل و دسسية كل مشترك في المؤامرة . فإبن السوداء ولا شك أهون من أن يحدث التطور السياسي و غيره ممن هم أعظم منه شأناً و اشد منه خطراً أهون من إحداث ذلك التطور كله، لأنه يرجع الىأسباب متفرقة عميقة القرار ، كثيرة التشعيب لا تضطلع بها قدرة رجل واحد و لاعدة رجال متألبين متواطئين . و لكن مقتل عثمان شيء آخر غير التطور السياسي ، و في وسع ابن السوداء ومن هو أقل منه أن يقترف بيده و أيدي من يستمعون لتحريضه و دسيسته ، لأنه في حقيقته " مشاغبة" من مشاغبات الدهماء التي لا تعجز عن امثال هذة الأفاعيل "[1] .

والعقاد هنا يملك النظرة الثاقبة للمؤرخ ، وإن لم تكن على المساحة المباشرة للرواية التاريخية . فهو يخالف المؤرخين أو بعضهم ، في ربط

[1] عبقرية عثمان ص٣٢

المتغيرات في دولة الاسلام بمقتل عثمان الذي جاء نتيجة مؤامره محبوكة تفاصيلها حسب رأيه .و إذا كان من الصعب فصل حادث عن آخر ، لاسيما خلال تلك الفترة التي انعكست مؤثراتها بصورة مباشرة على المجتمع الاسلامي ، فإن العقاد كما يبدو يؤسس هنا – وإن بصورة غير مباشرة – لتهميش دور إبن سبأ و حصره بالتحريض على مقتل عثمان، من دون أن تكون له مفاعيل أخرى على " التطور السياسي" الذي كان أبعد – برأيه – من هذة الحادثة العابرة. وعلى الرغم مما بنطوي عليه هذا التحليل من عمق ، يتعدى الدور المحدود للداعية السبئي الى معطيات أكثر جذرية في تطورات المرحله و ما بعدها ، فإن العقاد لا يلقي ما يكفي من الضوء لإزالة اللبس الذي ربما تفاقم بعد مغادرة هذه الصورة المركبة . وهذا المنحى لا يتصل به موضوعنا الأساسي ، وهو بالتالي مفصول عن مقتل عثمان الذي يعتبره الكاتب "شيئاً آخر" غير متصل بالجذور . ولا يعنيه من هذا المنطلق أن يكون عبد الله بن سبأ ، شخصية حقيقية أم وهميه ، إذ يقلّل من شأنه في الأساس ، خلافاً للشيخ عبد المقصود الذي يعطي له حجماً لم ينله في الرواية التاريخية أو الدراسات التي راكمت عليها . ولكن في النهاية يمكن ملاحظة استنتاجين هامين في بحثه (العقّاد):

١- عدم الإنسياق وراء الهاله التي أعطيت لإبن سبأ من جانب معظم المؤرخين والكّتاب ، فلم تتعد من منظوره هذه المسألة "حادثة محلية قد تتم على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، وقد يستطيعها ابن السوداء ومن هو أقل من ابن السوداء "[1] .

٢-بناء على ذلك فإن مقتل عثمان ما كان ليحدث لو توفر القليل من الحماية العسكرية للخليفة، متهّماً بصورة غير مباشرة والي الشام (معاوية) بالتقصير في هذه المسألة (إن عثمان ماكان يقتل لو كانت داره محروسة حراسة الدور التي يقيم فيها ولاة الامور ، وإن هذه الجمهرة التي اقتحمت داره واجترأت عليه بالسلاح ما كانت لتقتل والياً من ولاته - كمعاويه بن ابي سفيان مثلاً - لوانها هجمت على داره وبين حرسه واجناده)[2] .

---

[1] عبقرية عثمان ص ٣٢

[2] المكان نفسه

و ـ فلهوزن و فان فلوتن

هذا ما كان من امر الدراسات العربيةِ الحديثة و المعاصرة المسّلمة بالدور الذي قام به عبد الله بن سبأ في سياق الفتنه الشهيرة ، و قد جاءت، على التفاوت في حجم المادة التاريخية ، مقتضبه بشكل عام وتفتقد الى العمق و النظرة التحليليةالثاقبة . ولعل العقّاد وحده خرج من حصار الروايةوقارب الاسباب الموضوعيه للفتنه، بمنأى عن الدورالمنسوب للداعية السبئي .

أما المستشرقون ، فكانوا اقل حماسة للخوض في هذه القضية ، ربما لأنهم وجدوا في الرواية التاريخية منحى لا يتفق مع نزعتهم العلمية واستنتاجاتهم التي تقوم على المقارنة. ومن اللافت أن يوليوس فلهوزن ، المستشرق الالماني الشهير ، تجاهلها تماماً في كتابه " تاريخ الدولة العربية"، حيث تندرج فيه مفصلةً أحداث الفتنه . وقد سجل مترجمه[1] ملاحظة هادئة عليه في هذا السبيل ، فأورد في الهامش ما نصّه : " والمؤلف أغفل ذكر الدور الذي كان لعبد الله بن سبأ (ابن السوداء) في اثارة الفتنه اولاً و تنظيم الاتصال بين الثوار في مختلف مدن الأمصار . ومهما قيل في دور إبن سبأ فهو مذكور في كتب التاريخ و لايصح إغفاله[2].

---

[1] عبد الهادي أبو ريده

[2] انظر الكتاب ص ٤٨ هامش <١>

على أن فلهوزن تدارك هذا " الاغفال " في كتابة الآخر (الخوارج والشيعه) ، إلا أنه لم يعد الى منطلقات السبئية في عهد عثمان ، بل أشار اليها في سياق الحديث عن حركة المختار الثقفي في الكوفة ، خصوصاً الى العلاقة الوثيقة التي ربطت الأخير بالموالي (الفرس). و تكتسب اشارته اهميتها في نفيه أية علاقة بين التشيع و المصادر الخارجيه ، سواء كانت عبر الداعية السبئي (اليهودي)، ام عبر المؤثرات الفارسية (الايرانية) التي نسبها البعض الى التشيع فيما بعد .يقول : فلهوزن :" أما ان آراء الشيعة كانت تلائم الإيرانيين فهو لاسبيل الى الشك فيه ، وأما كون هذه الآراء قد انبعثت من الايرانيين ، فليست تلك الملاءمة دليلاً عليه ، بل أن الروايات التاريخية تقول بعكس ذلك ، إذ تقول أن التشيع الواضح الصريح كان قائماً اولاً في الدوائر العربية ، ثم انتقل الى الموالي ، وجمع بين هؤلاء وبين تلك الدوائر"[1] .أما السبئيه فأن فلهوزن يعتبرها إطاراً للكيسانية التي نُسب الالتزام بها للمختار ، رابطاً بينها وبين الهوية القديمة لإبن سبأ و لكن من دون التوقف طويلاً عند هذه المسألة ، مصرّحاً بأنه لايعيرها " من الاهمية أكثر مما تستحق"[2]. ولعله - أي فلهوزن - كان أكثر توغلاً في المنحى الفلسفي للسبئية ، فخاض في

---

[1] الخوارج و الشيعة ص ١٦٩

[2] المرجع نفسه ١٧١

موضوعة " الرجعة"[1]، و مؤثرات هذه الفكرة في العهد الاول من الخلافة العباسية .

ولا يتجاوز المستشرق الهولندي فان فلوتن هذا الأطار في موضوعة السبئية ، فيتناولها كفرقة دينية لها مشروعها السياسي الذي عبّر عنه أولاً المختار الثقفي . على أنه يعارض رأي فلهوزن بأن السبئية " يُسمون أيضا الكيسانية"[2] ويرى أن مسافةً " تفصل ما بين العقيدتين .... فأذا كانت الاولى تمجّد الروح الالهية في(علي) وتجعل له نصيباً منها ، فإن الثانية اعتبرته رمزاً للمعرفة الالهية "[3]

وليس هدفنا بالطبع البحث في " العقيدة " السبئية وملابساتها ، ولكن اوردنا شيئاً من ذلك لإبراز المنهج الذي تناول من خلاله المستشرقون هذه المسألة . فكلاهما جاء متفقاً على إهمال العنصر التاريخي فيها ،لاسيما فلهوزن الذي لم يشأ التعرض لها برغم احتكاك موضوعه المباشر معها. وكما تبيّن فقد نوقشت السبئية لدى الاثنين في سياق حركة الثقفي ، دون أن يعود كلاهما الى جذورها في عهد عثمان.

---

[1] المرجع نفسه ص ١٧٤

[2] المرجع نفسه ص ١٦٨

[3] السيطرة العربية . ترجمة ابراهيم بيضون ص٨٠

وإذ نكتفي بما أورده كل من فلهوزن وفان فلوتن عن السبئية ، وهما من اوائل المهتمين بتاريخ المرحله الأولى من الاسلام ، فإن ما جاء في دراسات المستشرقين الآخرين ، لم يضف جديداً بارزاً اليها . وقد انطلقت جميعها من الرواية نفسها، وما انطوت عليه يندرج في السياق الفكري وليس التاريخي الذي تطابق عموماً لدى المستشرقين ، مع النظرة التي سادت معظم الدراسات العربية الى هذه المسألة .

-٢-

المشـكـكّـون

أ- طه حسين : الفتنه الكبرى

إن موضوع السببية ، وكما أشرنا سابقاً ، لا يمكن بحثه خارج نطاق المنهج الذي تبقى له على صعيد الدراسات التاريخية مقاييسه و ضوابطـه ، ما لا نجده على المستوى نفسه في فروع العلوم الانسـانية الأخـرى . وقـد ترافق تطور المنهج في الواقـع مـع انكفـاء السـببية في الدراسـات المعـاصرة وتراجعها احياناً الى حدّ الاختفاء أو التهميش ، وذلك بناء علـى ضعـف الروايـة مصـدر المعلومـة ، فضـلاً عـن ثغـرات لا تخفـى علـى الكـاتب أو المـؤرخ، المنطلـق مـن نظرةنـاقدة و موضوعيـة الى احـداث تلـك المرحلـة الدقيقة من تاريخ الاسلام .

و لعل طه حسين الذي عاد من فرنسا في مطالع القرن ، متأثراً بمناهج الكتّـاب الأوربيـين ، و متعمقـاً في فكـر ابـن خلـدون ، ممـا تجلـى علـى الخصوص في كتابه " الشعر الجاهلي " الذي اثار ضجة مدوّية ، لاختراقـه النمط المألوف في الكتابه الادبية و التاريخية ، كان مؤهلاً لإعادة النظر في قراءة التراث بما يتلاءم و التفكير العلمي الهاديء و الرصين . فكما كـان رائداً من هذا المنظور في دراسته الجريئه عن التراث الشعري للعـرب قبـل

الاسلام ، و الذي تصدى له المتزمتون بحرب شعواء ، كان كذلك في دراسته المتميزه عن " الفتنه الكبرى " التي تناولها في ضوء هذا المنهج الجديد ، ملامساً عمق المسائل ، ومنها الموضوعه السبئية التي كان اول من أثار حولها الشبهة و الارتياب . فأسّس لاتجاه جديد في حركة البحث العلمي ، يصبح معه الشك وسيلة إيجابيه لتفسير التاريخ و ليس عنصر إعاقة أو تشويش له .

ومن الواضح بدايةً أن شخصية إبن سبأ لم تأخذ مكانها الطبيعي في سياق بحثه ، بدليل انه كرّس لها سياقاً خاصاً ، لصُعوُبة اندماجها من منظوره في حركة المسار التاريخي للمرحلة . نتّعرف الى ذلك بغير صعوبه في مستهل الحديث عنها ، إذ أن الكاتب لا يتعامل مع الرواية كحقيقة ، و إنما كواحدة مما هو معروف بالقصص التاريخي ، دون أن يرى ضرورة اسنادها الى مصدرها ، مكتفياً فقط باستخدام عبارة " قال الرواة " أو "قالوا" [1] ، الاكثر ملاءمة لطبيعة منهاجه .

يقول طه حسين : " وهناك قصة اكبر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيها ، حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان، ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة بين

---

[1] الفتنه الكبرى١٣٨

المسلمين لم تُمح اثارها بعد ، وهي قصة عبد الله بن سبأ الذي يُعرف بابن السوداء . قال الرواة : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء حبشي الأم ، فأسلم زمن عثمان ثم جعل يتنقل في الامصار يكيد للخليفة و يغري الناس عليه و يذيع في الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم في الدين و السياسة جميعاً "[1] .

بهذه المقدمه يمّهد الكاتب لشخصية ابن سبأ ، منطلقاً من الرواية التاريخية المعروفة بشأنها ،و مضيفاً منذ البداية جواً تعبق فيه رائحة الشك قبل أن يتابع بالأنسياب ذاته تجوال السبئي على الامصار ، حيث التقى أبا ذرّ الغفاري و آخرين من الصحابة في الشام ، منتقداً عثمان و متحدثاً برجعة الرسول ووصاية علي . ثم يضيف الكاتب متعّمداً اغفال الرواية، فينسب القول الى " بعضهم " أن ابن سبأ " أحكم كيده إحكاماً، فنّظم في الامصار جماعات خفية تتستر بالكيد و تتداعى فيما بينها الى الفتنة، حتى إذا تهيأت لها الامور وثبت على الخليفة ، فكان ما كان من الخروج و الحصار و قتل الإمام"[2] .

وينتقل الكاتب بعد ذلك من الحدث كمادة خبرية الى تفكيكه والوقوف نتيجة لذلك على عنصر المبالغة الواضحة فيه ، دون أن يخفي

---

[1] المكان نفسه ص ١٣٨

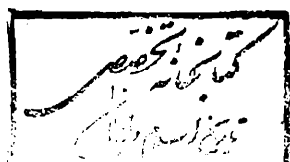
[2] المكان نفسه

استغرابه من إهمال المصادر الاساسية لهذه الشخصيه فيقول : "ويخّيل إليّ أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ الى هذا الحد ، يسرفون على انفسهم وعلى التاريخ اسرافاً شديداً . و أول ما نلاحظه أنا لانجدلإبن سبأ ذكراًفي المصادر المهمه .... فلم يذكره ابن سعد ... و لم يذكره البلاذري ... و ذكره الطبري عن سيف بن عمر ، و عنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر"[1] .

لقد شكلّت هذه الإضاءه على شخصية ابن سبأ ، مدخلاً مهماً الى عالم هذا " الداعيه " الذي " أخترق " بجرأته الغربيه مسرح الاسلام وكأنه من روآده و سابقيه الأوائل، خصوصاً في الإشارة الرائدة الى تفّرد الاخباري سيف بن عمر في روايته عنها ، دون أن يقتنع بها المؤرخون الكبار ، باستثناء الطبري الذي وجد لها متّسعاً بين رواياته الغزيرة . ومن هذاالباب يلج طه حسين بثقة الى هذا الموضوع ، ليس مشككاً فقط ، ولكن نافياً أن يكون لمثل هذه الشخصيه - وإن وُجدت - ذلك التأثير في تطورات المرحلة :

" ولست أدري إذا كان لإبن سبأ خطر في أيام عثمان أم لم يكن ، ولكني أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر، ليس ذا شأن . وما كان

[1] المرجع نفسه ص ١٣٢



المسلمون في عصر عثمان ليعبث بعقولهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان ، و لم يكد يسلم حتى أنتُدب لنشر الفتنه وإذاعة الكيد في جميع الأقطار"[1]

و هذا منتهى التحليل الموضوعي للدور المنسوب لإبن سبأ ، و الذي ألمحنا اليه في القسم الأول من هذه الدراسة . فالمؤرخ يعجب في الواقع لتلك الليونه التي أبداها ولاة عثمان في الامصار إزاء التحرك المشبوه لهذا الداعية . وإذا رجعنا الى الرواية التاريخية وما كان من أمر السبئي في البصرة ، فإننا لانجد في ردّة الفعل من جانب واليها ، ماهو متكافئ مع خطورة حركته ، إذ يأمره فقط بالخروج من البصرة[2] . كذلك معاوية الذي خاطبه بهدؤ[3] ، مما لايتفق و اسلوبه المعتاد إزاء المشاغبين على الحكم في ذلك الوقت . وقد تنّبه طه حسين لهذا الامر ،مستغرباً أن يقدم هذان الواليان بما عُرف عنهما من شدة على المعارضة ، على التعامل بمثل هذا الاسلوب مع " الرجل الخطير "، فقال معلقاً على ذلك :

" ولو قد أخذ عبد الله بن عامر أو معاوية هذا الطارئ الذي كان يهودياً فلم يسلم الاكائداً للمسلمين ، لكتب أحدهما أو كلاهما فيه الى

---

[1] المكان نفسه

[2] الطبري ج٤ ص ٣٢٧

[3] المصدر نفسه ج٤ ص ٢٨٣

عثمان ، و لبطش به أحدهما أو كلاهمـا . ولـو قـد أخـذه عبـد الله بـن سعد ابن أبي سرح (والي مصر) ، لما أعفاه من العقوبه الـتي كـاد ينزلهـا بالمحمدين (محمد بن أبي بكر و محمد بن أبـي حذيفـة) لـولا خوفـه مـن عثمان . والذي يكتب الى عثمان يستأذنه في البطش بابن ابي بكر و ابـن أبي حذيفة وعمّـار بـن ياسر في بعـض الروايـات ، خليـق الاّ يعفـي مـن عقوبته رجلاً من أهل الكتاب قد اتخذ الاسلام وسـيلة لإثـارة الفرقـة بـين المسلمين و تشكيكهم في إمامهم بل في دينهم كله. و لم يكن أيسر من أن يتبع الولاة هذا الطارئ ومن أن يأخذوه ويعـاقبوه ، وهـم كـانوا مهـرةفي تتبع المعارضين و إخراجهم من ديارهم و ارسالهم الى معاوية أو الى عبـد الرحمن بن خالد بن الوليد"[1] (أحد قادة جيش الشام) .

ويمضي طه حسين بعيداً في تفكيك الرواية " السيفية " ليتوقـف عنـد نقطة مهمة ايضاً ، تتعارض و المنطق التاريخي ، وهي الخاصة بالعلاقة بـين عبد الله بن سبأ و أبي ذرّ الغفاري و التي تجعـل الأخـير مـن أتبـاع الأول ومن السائرين على هديه ، فيقول : " ومن أغرب ما يُـرى أمـر عبـد الله بن سبأ، أنه هو الذي لقّن ابا ذرّ نقد معاوية فيما كان يقول مـن أن المـال هو مال الله ، وعلمّه أن الصواب أن يقولن أن المال هو مـال المسـلمين[2].

---

[1] الفتنه الكبرى ص ١٣٢

[2] أنظر الرواية في الطبري ج٤ ص٢٨٣

ومن هذا التلقين إلى أن يقال إنه هو الذي لقّن أبا ذرّ مذهبه كله في نقد الأمراء و الأغنياء و تبشير الكانزين للذهب و الفضه بمكاوٍ من النار تكوي جباههم و ظهورهم .... وما أعرف إسرافاً يشبه هذا الاسراف ، فما كان ابو ذرّ في حاجة الى طارئ مُحدث في الاسلام ليعلمه أن للفقراء على الاغنياء حقوقاً ، وان الله يبشّر الذين يكنزون الذهب و الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بعذاب اليم ، وأن المال الذي يكسبه المسلمون حين يظهرون على العدو ، أو الذي يؤديه المسلمون الى بيت المال زكاةً أو خراجاً ، هو مال المسلمين يجب أن يضاف اليهم في القول وأن يّرد عليهم بالفعل "[1] .

ويتابع لافتاً الى ريادة ابي ذرّ في الاسلام ، ومعايشته القريبه للرسول، آخذاً التفاصيل عن دعوته وعن تجربته في الحكم :

" لم يكن أبو ذرّ بحاجه الى هذا الطارئ ليعلمه الحقائق الأولية من حقائق الاسلام . وابو ذرّ سبق الأنصار جميعاً وسبق كثيراً جداً من المهاجرين الى الاسلام ، وهو قد صحب النبي فأطال صحبته ، وحفظ القرآن فأحسن حفظه ، ، وروى السّنة فأتقن روايتها "[2] .

---

[1] الفتنه الكبرى ص١٣٣

[2] المكان نفسه

ولايكتفي الكاتب بالتصدي النظري لهذة المسألة ، حين يتوجه بالنقد إلى مروّجي هذه المعلومـة قـائلاً : " فـالذين يزعمـون أن ابـن سـبأ قـد أتصل بأبي ذرّ فألقى اليه بعض مقاله ، يظلمون انفسهم و يظلمون ابا ذرّ و يرقون بأبن السوداء الى مكانة ما كان يطمح ان يرقى اليها "[1] ، ولكنـه يخوض فيها معتمداً علـى القرائـن ، مستحضراً ردّ الغفـاري علـى كعـب الأحبار و وثوبه عليه ، بعدما سمح الأخير لنفسه بـالتدخل " مجتهـداً" بينـه وبين الخليفة عثمان بشأن فريضـة الزكـاة[2] . و ينتهـي الكـاتب الى تحليـل منطقي للعلاقة بين الاثنين قائلاً :

" فأبو ذرّ ينكر على كعب الأحبار أن يعلمه دينه ، بل أن يدخـل في أمور المسلمين حتى بإبداء الرأي ، مع أن كعب الاحبـار ... ابعـد عهـداً بالاسلام من ابن سبأ وكان مجاوراً في المدينه يصبح و يمسي بين اصحـاب النبي ، وكان معاشراً لعمر و عثمان ، ثم الا يتحـرج (أبـو ذرّ) مـن أن

---

[1] المكان نفسه

[2] يروي الطبري عن سيف أن أبا ذرّ دخل على عثمان و عنده كعب الأحبار فقال لعثمان : لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدى الزكاة الاّ يقتصر عليها - -حتى يُحسن الى الجيران و الاخوان و يصل القرابات . فقال كعب : من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه . فرفع ابو ذرّ محجنه فضربه فشجه. ... و قال له يا ابن اليهوديه ما أنت وما ها هنا . الطبري ج٤ ص٢٨٤ . أنظر طه حسين ، الفتنه الكبرى ص١٣٣

يتلقى من عبد الله بن سبأ اصلاً من اصول الاسلام و حكماً من احكام القرآن ..."[1]

إن طه حسين في بحثه لموضوعة ابن سبأ ، كان قارئاً جيداً للتاريخ ، وممسكاً بكافة الخيوط فيه الرواية،دون أن يدع طرفاً منها يشذ عن الآخر، فجاء هذا البحث متماسكاً في وحدته وبنائه ، و ذلك في ظل رؤية تحليلية ونقدية ثاقبة ، حصنّته من الوقوع فيما وقعت فيه جمهرة من المؤرخين الذين كانت قراءات معظمهم مسطحة وحامدة . لقد كانت الثورة على عثمان - برأي الكاتب - محصلة لعدة اسباب ، قد لايكون محورها السخط على سياسة الخليفة ، بقدر ما هي خاضعة في الأساس للتحولات التي مرت بها دولة الاسلام في أعقاب حركة الفتوح الأولى ، تلك التي فشل عثمان في استيعابها على نحو ما فعله الخليفة السابق،باعتماده معادلة توازنيه شموليه ، أدت الى انحسار كثير من التناقضات في عهده . على أن عثماناً بنزعته الفئوية أطاح تلك المعادله التي أحدث انهيارها شرخاً كبيراً أخذ يتوسع حتى انتهى الى ما عُرف بالفتنه . فهل كان ذلك كله من انجاز عبد الله بن سبأ الذي لا ينفك طه حسين يدعوه بـ " الطارئ " على هذة الموجة إن صح وجوده بالفعل ،

---

[1] الفتنه الكبرى ص ١٣٣

واصفاً ما قيل حوله في هذا الصـــدد بأنهـا " أمـور لا تسـتقيم للعقـل و لا تثبت للنقد و لا ينبغي أن تقام عليها امور التاريخ "[1] .

و هذا التشكيك بشـخصية ابـن سـبأ أو بـدوره ، انمـا هـو نـابع مـن الحقائق و ليس من الاجتهاد فقط ، دون أن يهمل الكاتب مسألة حيوية ، تمس الجانب السلبي في حركة التدويـن التـاريخي الاسـلامي ومـا تسّـرب اليها من روايات لا تتمتع كلها بالثقة ، فيصل بناء على ذلك إلى اسـتنتاج واقعي بصدد هذه الشخصيه السبئية قائلاً :

" أكبر الظـن ان عبـد الله بـن سـبأ هـذا - إن كـان مـا يُـروى عنـه صحيحاً - إنما قال ما قال و دعا الى مـا دعـا اليـه بعـد أن كـانت الفتنـه وعظم الخلاف ، فهو فقط استغل الفتنة و لم يثرها . و أكبر الظن كذلـك ان خصوم الشيعة أيام الأمويين و العباسيين قد بالغوا في امر عبــد الله بـن سبأ هذا ، ليشكّكوا في بعض ما نسب من الأحداث الى عثمـان و دلالتـه من ناحية ، وليشّنعوا على علي وشيعته من ناحية اخرى ، فـيردوا بعـض امور الشيعة الى يهودي اسلم كيداً للمسلمين . وما اكثر ما شّنع خصـوم الشيعة على الشيعة ، وما اكثر مـا شـنع الشـيعه علـى خصومهـم في امـر عثمان ، وفي غير امر عثمان "[2] .

---

[1] المرجع نفسه ص ١٣٤

[2] المكان نفسه

ب- محمد عمارة : الخلافة و نشأة الاحزاب الاسلامية .

لم ينل عبد الله بن سبأ سوى القليل جداً من اهتمام هذا الكاتب الغزير الانتاج ، منطلقاً ، شأن طه حسين ، من الشك بوجود هذا الرجل، وذلك في سياق بحثه لموضوعة " الشيعة و الإمامة "[1] . فهذا البحث يناقش اساساً التشيع كعقيدة دينية تبلورت مع هشام بن الحكم[2] ، نافياً أن تكون ثمة علاقة بين الأخير وعبد الله بن سبأ الذي اسسّ - بناء على رواية سيف - لمبدأ " الوصية " جوهر هذة العقيدة[3]. و يعتقد عمارة أن التشيع كان ما يزال حتى ايام هشام ، تياراً سياسياً يمثل الحزب المؤيد لحق علي في الخلافة ، و لم يأخذ وجهته " العقيدية " الا مع جعفر (الصادق) و أبيه (الباقر) و حفيده(الرضا) ، إذ هؤلاء " تُنسب اليهم اغلب الروايات التي رواها الشيعة في صورة أحاديث عن النص و الوصيه " حسب قوله [4].

---

[1] الخلافة و نشأة الأحزاب الاسلامية ص ١٥١ وما بعدها

[2] فقيه من أصل فارسي عاصر الامام جعفر الصادق

[3] عمارة ، المرجع السابق ص١٥٢

[4] المرجع نفسه ص ١٥٣

وفي ضوء هذا التوجّه ، يعارض عمارة المقولة التي تربط ظهور التشّيع بحركة عبد الله بن سبأ في اواخر خلافة عثمان . وهذا الموقف لم ينطلق من قراءته لتفاصيل رواية سيف في الطبري الذي غاب نهائياً عن هوامش هذا البحث ، ولكنه عاد الى ما اقتبسه المقريزي من هذه الرواية[1]. و لسنا هنا في مجال التعّرض لمنهج عمارة الذي يجتهد أحياناً بمنأى عن النصوص التاريخية ، مما يؤدي الى اختصار الفكرة او مراودتها عن بعد . ولكن الرجوع الى النص الأصلي، عدا أنه من اساسيات المؤرخ أو الكاتب في التاريخ ، فإنه يفتح آفاقاً لا تتيحها المصادر المتأخرة أو المراجع الحديثة.

ولقد انعكس ذلك على منهج عمارة فيما تطرق له من اشارات الى إبن سبأ ، دون أن يكون خارج اللبس ما صرّح به عن الاصول التاريخية التي عاد اليها قائلاً : " وتنسب اغلب مصادر التاريخ والفكر الاسلامي الى ابن السوداء هذا نشاطاً عظيماً و جهداً خرافياً"[2]. فهو لم يعّرف اولاً عن هذه المصادر ، وثانياً إن موضوع إبن سبأ لم يرد الاّ في رواية واحد شكلّت المصدر الوحيد له ، و ثالثاً إن المادة التي اقتبسها ليست مطابقة تماماً لما جاء في الرواية الاساسية . فقد نسبت هذه " المصادر " لإبن سبأ دوراً خرافياً بالفعل ، ومن خلالها جاءت ترجمته لدى عمارة كما يلي:

---

[1] المرجع نفسه ص ١٥٤

[2] المكان نفسه

"تقول(المصادر) أنه أتى الحجاز و تقشف وقام بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر طلباً للرئاسة . ثم لعب دوراً كبيراً في ايقاع الفتنه بين الصحابة و أكابرهم ، ثم حّرض على قتل عثمان و حركّ الناس في هـذا السبيل . و في خلافة علي أفسد المحاولات التي كادت تنجح للصلح في البصرة بـين علي و طلحة و الزبير . ثم جـاء دوره في ظهـور التشيع عندمـا جـاء الى الكوفة يُظهر تعظيم علي مما لا يرضاه علي و يستغوي بذلك مـن ليسـت له صحبة و لافقه في الدين ، كالبوادي و أهل السواد و يتحدث بينهـم ، وربما استقصر عندهم فعل أبي بكر و عمر و عثمان ، ويقدّم امير المؤمنين (علي بن ابي طالب) عليهم في الفضل . وكان يدّعي ان علياً يسـتخصه و يخرج اليه بأسرار لا يخرج بها الى غيره ، وعلي لا يعلم ذلك."[1]

ان هذا التوصيف لدور ابن سبأ والذي اقتبـس الكـاتب معظمـه عـن "تثبيت دلائل النبوة" للقاضي عبد الجبار ، لا يجنح فقط الى المبالغة ولكنه يتجاوز ما جاء في رواية سيف من تفـاصيل . غـير أن الكـاتب وقـد اورد ذلـك ، لا يبـدو مقتنعـاً بهـذا الـدور الـذي سـرعان مـا يصطــدم عنــده بالشك،متعاملاً بحـذر مـع " داعيـة " اختلـف بشـأنه المؤرخـون ، إذ قـاد البحث عنه فريقاً الى انكار شخصيته كليـاً ، و رأى " أن مؤرخـي السـنّة

---

[1] المرجع السابق ص ١٥٤

قد اخترعوها كي يعلقوا في عنقها الأحداث و الصراعات و الدماء التي سبّبها الصراع على السلطة ، حتى تظّل لصحابة رسول الله قدسيتهم و صورتهم المثلى في النفوس . كما قاد هذا البحث البعض الآخر الى التسليم بوجود هذه الشخصية ، و لكن مع رفض المبالغة في الدور الذي لعبه في تلك الاحداث[1].

و إذا كان هذا التصنيف الذي أورده عمارة يتفق و المبدأ العام لدى الفريقين في النظرة الى شخصية ابن سبأ ، فأنه ليس خاضعاً بالمطلق لهذه الرؤية المجردة . ولعله يغفل من هذا المنظور حقيقة هامة ، وهي أن رائد الشك بهذه الشخصية كان طه حسين ، مقّدماً قرائن علمية بارزة في هذا السبيل ، دون أن يرد كتابه (الفتنة الكبرى) بين مصادر ومراجع الكاتب. كذلك فإن مؤرخاً غير شيعي نظر الى ابن سبأ بما يتعدى الشك الى الرفض ، وهو هشام جعيط في كتابه القيم عن "الفتنه"[2] . على أن عمارة وإن كان مطلوباً منه التعمق أكثر في دراسته لشخصية السبئي ، فإنه في وعيه اقرب الى اسقاطها من الهاله التي احيطت بها ، ذاهباً الى رفض العلاقة اساساً بينها و بين حركة التشيع .

---

[1] المرجع نفسه ص١٥٤ -١٥٥

[2] الفتنه ، جدلية الدين و السياسة في الاسلام المبكر ص٧٥

وقد خلص في تقويمه لشخصية ابن سبأ و ارتباطها - بما يُزعم - بحركة التشيع الى القول : " أما فيما يختص بموضوعنا ، موضوع التأريخ لنشأة التشيع ، فان وجود ابن سبأ - على فرض التسليم بوجوده - ... لايصلح دليلاً على ان التشيع ظهر في ذلك التاريخ ... وحتى الشيعة لا يروون عنه شيئاً من ذلك .. و من هنا فإن عصره لا يصح أن يُتخذ بدءاً لتاريخ الشيعة و التشيع بالمعنى الفني المعروف "[1] .

ولكن عبد الله بن سبأ - كصاحب دور يتعدى هذه المسألة - لم ينل حظاً من الدراسة المعمقةلدى عمارة ، مما كان سبباً في الارتباك الذي ساد احياناً البحث ، وكان ناتجاً في الاساس عن ابتعاد الكاتب عن الرواية الأصليه التي ذكرت أخبار هذا "الداعية" . ولو عاد اليها ، ربما تفادى الوقوع في اخطاء ثلاثة ليس على المؤرخ الوقوع فيها وهي :

١- قوله أن المصادر المعتمدة لم تنسب الى ابن سبأ القول بالنّص والوصية (بل نسبت اليه فقط القول بتفضيل علي على الصحابه)[2]. و هذا مخالف لما جاء في الرواية من قول ابن سبأ في هذا المحال : " لكل نبي

[1] عمارة ، المرجع السابق ص ١٥٥

[2] انظر الكتاب ص١٥٥

وصـي و كـان علـي وصـي محمـد...محمـد خـاتم الأنبيـاء و علــي خــاتم الأوصياء"[1]

٢- لم يرد في الرواية مايتعدى تحريض ابن سبأ على الخليفة عثمان ، دونما اشارة الى التعريض بأبي بكرأو عمر، خلافاً لمـا ورد عنـد عمـارة في هـذا السبيل .

٣- ما جاء من تناقض الكاتب مع نفسه ، حين رأى أن الشيعة لم يرووا شيأ من قول ابن سبأ في الوصية الوصية والنص ، في الوقت الذي وصــف الشيعه من قبل ، بأنهم يرفضون بالمطلق وجود هذا الرجل.

---

[1] الطبري ج٤ ص٣٤٠

-٣-

الرافضون

أ- محمد عبد الحي شعبان[١] وهشام جعيط[٢] .

إنها مسألة منهج يمكن على اساسها تقويم شخصية ابن سبأ ، إذا كانت حقيقة أو أسطورة ، أو بين الأثنتين كحدث عابر في مسار تلك المرحلة . ومن هذا المنطلق ربما نفسر تجاهل المؤرخ المعاصر محمد عبد الحي شعبان لهذه المسألة ، على الرغم من خوضه على نطاق واسع في اشكالية الفتنه و الصراعات التي واكبتها . فقد اسقط تماماً الموضوعة السبئية من كتابه، على الرغم من عودته في هذا السياق الى الطبري و الى رواية سيف بالذات ، دون أن يعني ذلك سوى أنها لم تتلاءم مع المنهج العلمي ، ربما المتشدد ، الذي اختاره لدراسته ، بحيث يصبح التجاهل هنا بمثابة الرفض .

وفي ضوء هذا المنهج ، تجّنب مؤرخ معاصر آخر (هشام جعيط)- ينحو الاتجاه نفسه في التاريخ مع رؤية أكثر شموليه وواقعية - التوقف

---

[١] صدر الاسلام والدولة الاموية

[٢] الفتنة ، جدلية الدين والسياسة في الاسلام المبكر . ترجمة خليل احمد خليل

عند هذه الحادثة على الرغم من اتخاذ "الفتنة " التي برز في ظلها إبن سبأ محوراً لكتابه . و لم تعن وقفته السريعة عندها ، سوى التأكيد على رفضها و عدم الاقتناع بوقوعها . وقد جاء ما ينّم هذا الموقف في تعقيب المؤرخ جعيط على خطاب أبي ذرّ الغفاري في الشام ، المنّدد بـ " اكتناز " الأغنياء للمال و النزوع الى الترف حيث يقول : " هذه الرواية التي تضع عبد الله بن سبأ على المسرح لا يمكن قبولها"، وينتهي الى اعتبارها رواية " ملفقة "[1] في الأساس .

ب – أحمد لواساني : نظرات في تاريخ الادب .

هذا الكاتب يتعرض لقضية ابن سبأ على أنها حركة مدسوسة على الاسلام ، ابطالها اليهود الذين تظاهروا بهذا الدين و ما انفكوا يتآمرون عليه حسب رأيه . و يصل به الأمر ليس الى الشك بالرواية ، ولكن بصاحبها نفسه (سيف بن عمر) متسائلاً بشأنه فيقول " إذا لم يكن .... هذا يهودياً اظهر الاسلام كما فعل الكثيرون غيره من أجل افتعال الاحاديث و خلق الفتنه – و أحاديثه و أخباره تؤيد هذا الظن – فهو على الأقل يفهم نفسية اليهود و يدرك اساليبهم"[2] . و لعل مثل هذا

[1] المرجع السابق ص ٧٥ هامش <١>

[2] نظرات في تاريخ الأدب ٣١٨

الحكم على إخباري هو أحد ثلاثة او اربعة[1] ، اعتمد المؤرخون اساساً على رواياتهم فيما دونّوه من أحداث القرن الاول و معظم القرن الثاني الهجريين، قد لا يكون مقبولاً و بهذه السرعه ، لدى المؤرخ الذي ربما طعن برواية أوأكثر لأحد هؤلاء الاخباريين ، ولكن اسقاط ذلك كلياً عليه سيجنح بنا الى المبالغة ، وبالتالي سيقودنا إلى الطعن بكل الروايات التاريخية ، سواء المنسوبه لسيف أو لغيره من اهل الاخبار . وليس على المؤرخ الواقعي هنا ، أن يقلّل من أهمية ما أورده احسان عباس في ردّه على مرتضى العسكري بشأن سيف و طعنه بكل رواياته إذ يقول عباس:

" هل تكفي ادانة اهل الحديث لسيف بأنه ضعيف متروك ، لتحملنا على رفض رواياته التاريخية .؟ لقد كان لأهل الحديث مقاييسهم الخاصة في التعديل و التوثيق " . ثم يضيف : " هل من الممكن أن يكون سيف قد اختلق كل هذا ، أي كتب تاريخاً من خياله ؟ " . وينتهي الى القول عن سيف بأنه " كان يحاول كتابة موسوعة تفصيلية للأحداث و لايقتصر

---

[1] ابو مخنف ، عوانة بن الحكم ، سيف بن عمر ، الواقدي

على ملخص عام ... ماذا تقول(مخاطباً العسكري) في سيف حين تتفق روايته مع روايات أخرى لرواة آخرين ؟ "[1] .

لقد ذهب اللواساني في الاتجاه الذي سار فيه العسكري ، فلم يقم بدراسة الرواية ، مفككاً عناصرها و مخترقاً نقاط الضعف فيها ، و إنما رفضها بالمطلق و عن سابق تصميم ، وهذا ما يعبّر عن قوله : "في الكذبة الكبرى التي اختلقها سيف بن عمر ، حين خلق شخصية اسماها عبد الله ابن سبأ و أتباعاً له دعوا "السبئيين"، نجد حالة تصوّر لنا العقليه التي يمكن ان تخطّط لمثل هذا التدبير و تتوصل الى مثل هذه النتائج "[2] . ويتخذ مثلاً على ذلك ، ما رواه هذا الإخباري (سيف) عن دور ابن سبأ في معركة الجمل ، مما لا ينسجم " مع الواقع التاريخي " أو ينطبق " مع أي من المصادر الاسلامية " حسب قوله[3] .

و الكاتب لا يؤرخ لهذه الحادثة ، بل هو معنى في الصميم بالدور اليهودي المشبوه الذي حاول اختراق الاسلام من خلال شخصيات توزعت المهام في هذا السبيل ، و كان من يمثّلها برأيه : عبد الله بن سلام

---

[1] انظر رسالة إحسان عباس الى مرتضى العسكري معلّقاً على كتاب الأخير : عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى ص ٢٤٧ - ٢٤٩

[2] نظرات في تاريخ الأدب ص ٣١٦ - ٣١٧

[3] المرجع نفسه ص ٣١٧

" الذي تجمع حول اسمه كثير من الاحاديث و الاخبار المشكوك بأنها مدسوسة على الاسلام "[1] ، و كعب بن ماتع المعروف بكعب الأحبار الذي تنبأ لعمر بن الخطاب بمقتله ، " وكان أبرز المتهمين بتّسرب أخبار وتأويلات يهودية الى الاسلام على يده "[2] ، ووهب بن منبه " الذي يأتي في أوائل الذين ألفوا كتباً من تلك التي أدخلت في الاسلام أخباراً كثيرة"[3]، بالاضافة طبعاً الى عبد الله بن سبأ . وقد اكتفى الكاتب بما أشير الى دوره في حرب الجمل ، دون أن يتطرق الى "دعوته" في المدينه و الامصار محّرضاً عى عثمان و مّروجاً لعلي " وصي النبي" . وبناء على هذا المفهوم - وعلى غرار السيد العسكري- يكون سيف بن عمر ، القضية التي استأثرت باهتمام الكاتب ، وذلك على حساب السبئي الذي أصبح بداهة غير موجود ، استناداً الى " اختلاق " الرواية له في الاساس ، "وافتعال " صاحبها أخباراً لا تمت برأيه الى الحقيقة بصلة .

---

[1] المرجع نفسه ص ٣٢٠

[2] المرجع نفسه ص ٣٢١

[3] المكان نفسه

ج – مرتضى العسكري : عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى .

عود على بدء ، كما يقال ، فالسيد العسكري ، وإن لم يكن رائد إثارة الاشكالية السبئية ، فهو على الاقل مثيرها على نطاق واسع من خلال كتابه السالف ، الذي ربما كان الوحيد الذي طرق مباشرة هذا الموضوع . و هذا ما دفعه – استناداً الى خلفية ظاهرة – الى النقد من منظور سلبي لكافة " أحاديث سيف " ، حيث كان " منشأ الاسطورة السبئية "[1] على حد قوله . و إذا كانت قيمة هذا الكتاب تنحصر في هذه المسألة ، أي في الجهد الذي سخّره في تقصّي الروايات" السيفية " ، وامتدادها في عدد من المصادر و المراجع ، بما انطوت عليه من مفارقات و مقارنات في آن ، فإنه لم يشكّل بحثاً وافياً و مقنعاً عن عبد الله بن سبأ، عنوان الكتاب .

وكما أشرنا في القسم الاول من دراستنا ، فإن العسكري تناول شخصية رافضاً لوجودها منذ البداية ، دون أن يأخذ بالنقد الرواية أو ينتهي الى استنتاج بشأنها . فقد استّهل كتابه بما يشبه التمهيد له ، بعنوان " الاسطورة السبئية " ، طارحاً أربعة اسئلة وهي :

---

[1] عبد الله بن سبأ و أساطير اخرى ص ٣٥

من هو ابن سبأ،من هم السبئيون، وما هي دعاواه ، وما هي أهم أعمالـه؟ هذه الاسئلة الكبيرة لم تأخذ من الكتاب سوى ست صفحات،ولانبـالغ اذا قلنا أنها لم تجب على أي منها . فقد لخص بكثـير مـن السـرعه أخبـار السبئي كما جاءت في الرواية " المزعومة " لسيف الذي يصفه الكاتب بــ " القاص "[1] ، و الذي ينسج - برأيه - خيالاً و لايروي حقائق تاريخيـة . ثم يعرض بعد ذلك لكبار السبئيين استناداً الى الأسـطورة " وهـم أبـو ذرّ الغفاري ، وعمار بن ياسر ، ومحمد بـن ابـي حذيفـة و عبـد الرحمـن بـن عديس ، ومحمد بن ابي بكـر وصعصعـة بـن صوحـان و مـالك الأشـتر . والطريف أن ما ذكره عن هؤلاء لم يأت في سياق علاقتهـم بالسـبئية أو " انطوائها " تحت رايتها، و إنما اقتصر ذلك على ترجمة لكل منهم ، جاءت خارج الموضوع ، قبل ان ينتهي الى تعقيب لا يعـبّر عـن الافكـار الـواردة فيها ، اذ يقول :

هذه هي اسطورة ابن سبأ بإيجاز ، وهؤلاء هم السبئيون الى مئات من أبرار المسلمين من صحابة وتابعين و نظرائهم "[2] .

ولايقصد هنا بالطبع سوى ما " زُعـم " عن هـذا " الحـزب السـبئي " ورجالاته ، إلا أن ترجمة هـؤلاء ليسـت بصـدد السـبئية علـى الاطـلاق .

---

[1] المرجع نفسه ص ٣١

[2] المرجع نفسه ص٣٤

فكيف انخرطوا في هذا " الحزب " ، وما كان دورهم فيه ، وما كانت وجوه نشاطهم، الى اخر هذه الأسئلة ؟ ذلك ما لم تجب عليه " الترجمات" التي يمكن اتخاذ نموذج منهاللدلالة على انفصالها التام عن محور الموضوع.

يقول العسكري عن الأشتر : " هو مالك بن الحارث بن بغوث بن سلمة بن جذيمة بن مالك النخعي . أدرك رسول الله (ص) وهو من ثقاة التابعين و كان رئيس قومه . شهد اليرموك فشترت عينه ولقب بالاشتر. صحب علياً (ع) في الجمل وصفين و له مواقف شهيرة فيهما . ولّاه على مصر سنة (٣٨ هـ) ، فلما وصل الى القلزم دس اليه معاوية السم بالعسل و توفي متأثراً بالسم"[1] .

وما ذكره العسكري عن الاشتر،لا يختلف عن بقية " كبار السبئيين" السبعه الذين تحدّث عنهم بمعزل عن الصفة المنسوبة لهم .

بعد ذلك يورد لائحة بأسماء المرّوجين للسبئية ، دون الالتزام بالتسلسل الزمني ، مبتدئاًبالشيخ محمد رشيد رضا و منتهياً بالذهبي ، مروراً بعدد كبير من المورخين القدامى و المحدثين مثل : الطبري و أبي الفداء و أبن الاثير و أحمد امين و حسن ابراهيم حسن و فلهوزن وفان فلوتن الخ[2]... . على ان هذه الائحة من المروجّين ، ملخّصة" في الجدول

---

[1] المكان نفسه

[2]المرجع نفسه ص٣٧ - ٥٦

الذي ختم به هذا الفصل ، لاتبدو مهمة بالنسبة للمورخ الذي تعنيه جذور الرواية و ليس امتدادها في المراجع ، الا اذا كانت الغاية من ذلك مناقشة الأفكار الواردة فيها ، وهو أمر لم أحد العسكري خائضاً فيه أو مقارباً له بصورة جديه.

وإذا كان توسيع دائرة البحث ليشمل دراسة " مقارنة" لأحاديث سيف ، قد قصد الكاتب من ورائه تجريد هذا الإخباري من الثقة برواياته، بما يسقط بداهةً على رواية إبن سبأ " الاسطورة " ، فإن هذا الموضوع لم ينل ما يستحقه على مستوى العمق و الشمولية . ولكن ما حققه العسكري من رصد لهذه الروايات (الاحاديث) و توثيق لها و مقارنة مع الروايات الاخرى ، يعتبر عملاً جليلاً بحد ذاته . وقد شكل ذلك مدخلاً الى محاولة قراءة جديدة لشخصية ابن سبأ ،بصرف النظر عما انطوت عليه من افكار مسبقة ، سرعان ما تجلت في السطور الأولى من الكتاب . ومن هذا المنظور فإن الكاتب على الرغم من أنه لم يكن البادئ في اثارة الاشكالية السبئية ، فإنه من دون شك كان اول الطارحين لها على هذا المستوى الجدالي الحاد ، مما لم يعد باستطاعة احد من المؤرخين تجاهل ذلك اللبس الذي احاط بشخصية ابن سبأ ، او الخروج من دائرة الشك،على الأقل بدوره " الطارئ " في مواجهة أحداث الفتنه .

د- ابراهيم محمود : أئمة وسحرة ، البحث عن مسيلمة الكذاب وعبد الله بن سبأ

ونحن نكاد ننهي دراستنا عن عبد الله بن سبأ ،وصلنا هذا الكتاب الصادر حديثاً (مطلع ١٩٩٦) ، وقد رأينا لمزيد من الفائدة ادراجه بين مجموعه الدراسات التي تعرضّنا لها في هذا السياق . على أن الكتاب ، وصياغة عنوانه لا يحتاج أمامها القارئ الى التوقف، ليدرك أنه ليس بحثاً في التاريخ ، بقدر ما يندرج في فلسفة التاريخ ، لم يضف جديداً بارزاً الى الموضوعه السبئية ، بل أنه - أي الكتاب - ربما تركنا أكثر بلبلة بشأنها . و هذا ما يواجهنا بالفعل منذ الصفحات الاولى من البحث و الاعلان عن موقف صاحبه من التاريخ ، باعتباره " مجالاً مفتوحاً للنظر فيه.. يحّرك فينا الاسئلة الكبرى و المتعلقة بما يتضمنه من علاقات وما يثيره من افكار و ما يقوم عليه من حجب الافكار و ثغرات تتخلل بناءه الفكري ، وتداخلات تستدعي المجادلة "[١] .

وفي ضوء هذا الموقف . فهو يلج موضوعه بحذر شديد و ميل الى "المساءلة " و محاولة " الاستنطاق " ،وهما عبارتان غالباً ما استخدمهما

---

[١] أنظر الكتاب ص١٤

في التعاطي مع النص التاريخي بمحمله ، و الذي يبقى عنده موضع ارتياب و لذلك يرى أن شخصية ابن سبأ " بولغ في أهميتها و خطورتها "[1] ، كمحرك رئيس للفتنه التي " شكّلت المنبع لظهور المناوئين للدولة الاسلامية في طابعها السني " حسب تعبيره [2] . هل يرى الكاتب هنا أن عبد الله بن سبأ شخصية مختلقة في التاريخ ؟ قد لا يبدو ذلك واضحاً ، على الأقل في مقارنته مع شخصية واقعيه من رموز الرّدة ، اعني بها مسيلمة الكذاب ، خصوصاً المقارنة بين ما يعتبره الكاتب " منافسة " من الاخير للنبي ، و " طَعن السبئي "في شخصية عثمان ، بل السابقين عليه ، بدعوى أن علياً وصي النبي محمد "[3]

والكاتب هنا يعود الى رواية سيف في حيثياتها المعروفة[4] ، أي أنه ينطلق من اعتراف بشخصية ابن سبأ ، إلا أنها " تقارب الاسطورة بالنسبة للتاريخ" حسب تعبيره[5] . ويورد دلالات كثيرة في هذا المجال تقلل من اهمية الدور المنسوب اليه ، ومن ذلك استغرابه من انخراط شخصية صحابية كبيرة " ومن الموعودين بالجنه " مثل عمّار ابن ياسر في هذه

---

[1] المرجع نفسه ص ١٧

[2] المكان نفسه

[3] المرجع نفسه ص١٦٧

[4] المرجع نفسه ص١٦٩

[5] المرجع نفسه ص١٦٧

"الشبكة السبئية"[1] . غير أن الكاتب يعود مرة أخرى الى بحث هذا الموضوعة على مستوى التاريخ و علاقتها بـ (اليهودية المؤسطرة) ، أو ما عُرف في الأدبيات الاسلامية بالأسرائيليات، متعمداً الدخول من هذا الباب الى عالم عبد الله بن سبأ ، باحثاً عنه و ملامساً حقيقة دوره الغامض .

يقول محمود :" ان ابن سبأ أو ابن اليهودية أو ابن السوداء للذم والتحقير ، شكل شخصية اكتسبت كل الأبعاد التي تجعلها ، وجعلتها ، اسطورية من جهة ، وتقدمها وقدمتها الدراسات التي تناولتها داهية في التاريخ العربي الاسلامي في فترة من أكثر فتراته حساسية ودراماتيكية (في القرن الأول منه) من جهة ثانية ، و تسند و اسندت اليها دوراً تآمرياً في تلغيم و توتير هذا التاريخ ، ومن خلال أكثر الرموز الدينية حضوراً (أو من أكثرها على الاقل) في هذا التاريخ ، و زحزحة جانبيه و تشطياتية له من جهة ثالثة . تلكم هي الشخصية الرمز المسماة ... عبد الله بن سبأ "[2] .وفي ضوء ما تقدم ، ينزع الكاتب الى اعتبار هذة الشخصية ، شخصية اسطورية، الا ان ذلك غير مطابق لوجهة العسكري الذي ينفي وجودها منذ أول كلمة في كتابه ، إذ تبقى نظرته (محمود)

---

[1] المرجع نفسه ص ١٧٥

[2] المرجع نفسه ص ١٩٢

محكومة بهذا المنحى الجـدلي : " ليـس الموضـوع الـذي هـو في متناولنـا ، يقتصر على حقيقة هذه الشخصية ... إنما هو مـا يُحـرك هـذة الشـخصية تاريخياً .... إذ البحث في موضوع عبـد الله بـن سـبأ ومـا إذا كـان فعـلاً شخصية حقيقية أم لا ، لا يفيدنا ، لأن ذلك لن يزحزح هذة الشخصية ، بالعلاقات التي عُرفت بها و الدلالات الحافة بها ، و لن يغير ذلك فيها موقعاً و دلالة تاريخيين شيئاً وبسهولة "[1] .

ولا اشك ان الكاتب يملك حسّاً مرهفاً ،مكّنه من الخوض على هـذه المساحة " الملّغمة " برباطة جأش ، دون الانصياع للمسـلمات الـتي بـدت شبه قائمة في الدراسات التاريخية بصدد هذه المسألة . بيد أنه يخوض فيهـا على مستوى فكـري ، مسـتنطقاً النـص في هـذا الصخـب الجـدالي الـذي يصبح غاية في معظم الأحيان لديه، بخلاف طريقة المؤرخ و منهاجه الذي يتوسل اثارة الجدل طريقاً الى مقاربة الحققية التاريخية . و لذلك فهو يمعـن في طـرح الأسـئلة ، او المسـاءلة - كمـا يؤثرهـا - مـن غـير أن توفـر لـه إجابات هادئه ، تسهم في اضاءة المدى الواسع الذي يسـبح فيـه . و لعلـه يبـدو اكـثر اقترابـاً مـن موقـع المـؤرخ ، في الصفحـات الـتي ينـاقش فيهـا

[1] المرجع نفسه ص ١٩٣

الموضوعه السبئية من خلال النظرة في المصادر اليها ، متوقفاً عند ستة من المؤرخين و الفقهاء ممن تناولوها في عهود متفاوته :

١- الطبري : يلاحظ الكاتب - متأثراً بنظرة طه حسين - برغم تقديره للمكانه التي يحتلها " هذا المؤرخ الاسلامي الكبير " ، أن ركام الروايات التي أوردها لم ينقذه من الوقوع في "التناقض" ، إذ "كيف يمكن - والكلام للكاتب - الجمع بين يهودي ، يُعرف بمثل هذا الخبث والدّس والنفاق و الكذب ،و صحابي جليل ورع كان جريئاً في مواجهته للآخرين (أبو ذرّ الغفاري) ... فهل كان بحاجة الى ابن سبأ وهو نقيضة في نواياه ، ليأخذ منه درساً في الثورية العقائدية ، وفي وضع حد لظلم المسلم في المسلم و إحقاق الحق "[١] ويمضي في هذه المجابهة مع المؤرخ الكبير ، متسائلاً مرة اخرى" كيف يمكن الجمع بين جهاز الشرطة الذي أسسه عثمان ، و النشاط المكثف الذي كان يقوم به اليهودي ابن سبأ"[٢] ، و بالتالي كيف يُستدعى الغفاري للتحقيق معه أكثر من مرة في الشام و لا ينطبق ذلك على ابن سبأ الذي اكتفى معاوية بطرده ، من "دون تعريضه لعملية تأديب معينة"[٣]. و يخلص الى التشكيك في الرواية التي

---

[١] المرجع نفسه ص ١٩٤ - ١٩٥

[٢] المرجع نفسه ص ١٩٦

[٣] المكان نفسه

اوردها الطبري من غير تمعن أو تمحيص ، بل أن الشك يذهب الى المؤرخ نفسه (الطبري) الذي لم ينف عنه الكاتب محمود التأثر بخلفيته "المعتقدية في تجليها المذهبي الرسمي تماماً[1] " حسب تعبيره .

٢- المسعودي : لا يرى الكاتب عند هذا المؤرخ ، علاقة واضحة بين أطراف ألازمة - الفتنه (عثمان ، ابو ذرّ ، ابن سبأ) ، إذ يكتفي المسعودي من ذلك بمواجهة بين الأولين و كعب الأحبار ، من خلال مروية مقتبسة على ما يبدو عن الطبري . ويعتقد محمود أن النزعة " الشيعية "[2] عند المسعودي كانت وراء إهماله لأخبار ابن سبأ .

٣ - الشهرستاني : يقتصر ما رواه عن هذا الفقية ، على اشارة عن ابن سبأ متزامناً مع خلافة علي ، بوصفه أحد الغلاة الذين ظهرو في عهده ، " و كأنه - والكلام للكاتب - يلجأالى الغمز ... باشارته هذه في ربطه ربطاً خفياً ، ومن ثم وظيفياً (بنيوياً) بين نشاطات علي ، والنزوع المذهبي " الايديولوجي " الشيعي باسمه ... أي أنه يؤرخ لوعي انقسامي في حياة الامة (الاسلامية) و طوئفي و مللي ، حيث تجلت الصراعات الدموية واضحة "[3] .

---

[1] المرجع نفسه ص ١٩٨

[2] المرجع نفسه ص ١٩٩

[3] المرجع نفسه ص ٢٠١

٤ - أبو الحسن الأشعري : وقد اشار الى الغلاة و منهم السبئية الذين زعموا "أن علياً لم يمت ، وانه يرجع الى الدنيا قبل يوم القيامة ، فيملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً "[١] . أي أن الأشعري يربط ، وإن بخلفية أقل بروزاً من الفقيه السابق ، بين " هؤلاء الغلاة ، وعلي نفسه ربطاً معتقداتياً... فيجري التركيز على البعد الانقسامي في امة الاسلام من جهة وتنبيه القارئ الى هذا المنبع اليهودي المؤثر و السلبي للتشيع من جهة ثانية."[٢]

٥ - ابن الاثير : يختصر ، برأي الكاتب ،حديثه في هذه المسألة ، على العلاقة بين الفتنة " والداعية " اليهودي ، محاولاً - كما الطبري الذي تأثر مباشرة به - إظهار الهدف التضليلي والإفسادي للحركة السبئية .

٦ - إبن خلدون: يتوسع الكاتب في شرح ملابسات الحركة السبئية عند هذا المؤرخ الذي " يبدو - برأيه - أكثر طواعية مع فكرة الخطر اليهودي المؤسطر ... و أكثر صراحة و تشدّداً حول هذا الموضوع ، عندما يعظّم الدور اليهودي (ابن السوداء) و دفعه للناس في طريق

---

[١] المكان نفسه

[٢] المرجع نفسه ص ٢٠٢

الظلالة والفساد و الغوغائية و القتل "[1] . و يروي عن ابن خلدون أن عبد الله بن سبأ " كان متشيعاً لأهل البيت .... و كان يجد باستمرار من ينخدع به ... و من بين هؤلاء الذين دخلوا دائرته السرية ، عمّار بن ياسر"[2] . أما رأي الكاتب محمود فيما اورده ابن خلدون بشأن هذه الموضوعة ، فأنه يردّ ذلك الى الخلفيه " السنية " المتشددة لهذا المؤرخ الذي كانت الخلافة هاجسه ،شأن معظم المؤرخين المتحركين في دائرتها، باعتبارها رمز وحدة الاسلام،وكل مناوئ لها لا يتردد احد منهم في تصنيفه خارج الاسلام،ومنهم بالطبع أو" على رأسهم"[3]، عبد الله بن سبأ

و لعل الكاتب محمود ، وهو لا يبدو معنياً كثيراً من وجهة نظر المؤرخ - كما سبقت الاشارة - بشخصية عبد الله بن سبأ ، بقدر ما تندرج عنده في العملية النقدية للفكر التاريخي ، يراود في وعيه مسألة مهمة في هذا المجال ، تأخذ به الى اشكالية التاريخ برمته ، خصوصاً على مستوى العلاقة بين المؤرخ و الحدث التاريخي ، وما يعكسه الأخير من مؤثرات على الاول تجعله مصنفاً في هذا الإتجاه أو ذاك . و بهذا المعنى - كما يرى الكاتب - " لايعود ابن سبأ هو الموضوع الذي يبحث فيه ،

---

[1] المكان نفسه

[2] المكان نفسه . أنظر ابن خلدون ، كتاب العبر ج٢ ص١٣٩ -١٤٤

[3] المكان نفسه ص ٢٠٤

وانما هو الفاعل في المؤرخ و الباحث عنه ، فهو إذ يكتب عن ابن سـبأ أو يغض النظر ، فإنما يفصح عن كينونته و جبّلتها الانسانية ، عن حضورهـا الواقعي و مسارها الاجتماعي و يستنطق ذاته بالتالي ، وهل كنا نستطيع ان نعرف المؤرخ على حقيقته هذه لولا ابن سـبأ ؟ فهـو في الحديـث عنـه مصّنـف للمؤرخـين و مختـبر لامكانـاتهم و مـدى حضورهـم في التـاريخ نفسة "[1] .

و من البديهي أن يوصله هذا المنطق الى التشكيك بالرواية " السـبئية " اساساً أو رفضها ضمنـاً ، لاسـيما و أن الطـبري الـذي اورد تفاصيلهـا حوى "تاريخه" العديد من الروايـات المتناقضـة و بينهـا هـذه الروايـة، بمـا انطوت علية من نقاط ضعـف واضحـة . و يلامـس الكـاتب هنـا المنهـج الذي انضوت فيه كتابة التاريخ في ذلـك الزمـن ، باتخاذهـا وجهـة معينـه لعدة قرون ، واستمرار ها على هذا النحو في معظم الدراسـات الحديثة . ولكن تفسيره لأشكالية التراكم عند المؤرخ " الاسـلامي " ، قـد لايكـون مقنعاً من وجهة نظر البحث التـاريخي الـذي يُبنـى علـى منطـق الحـدث ، وليـس بـترك المجـال أمـام القـارئ " لاسـتخلاص النتيجـة "[2] وفقـاً لمنهـج الطبري المعروف . ذلك أن مثل هذا التراكم الـذي كـان بعضـه عشـوائياً

---

[1] المرجع نفسه ص ٢٠٤

[2] المرجع نفسه ٢٠٥

وربما الآخر مقصوداً ، أسهم في بلبلة هذا التاريخ ، وجعل كثيراً من أحداثه ملتبسة ، أو مزدوجة المغازي و الابعاد ، مما كرّس لاحقاً مبدأ التوليف و التسوية بين اسلام غير جذري ، وبين سلطة سياسة يتروض فيها و تقوده مصالحها .و الفتنه التي برز بين اركانها عبد الله بن سبأ ، ربما لم تكن في حجمها الذي بولغ فيه على الارض ، ولكنها تصبح اكثر نبضاً في روايات المؤرخين ، إذ تلقفوها - كما غيرها من الاحداث - بالخلفيه ذاتها التي دفعت بهم الى هذا المضمار ، وما توالد عنها من دوائر كبير ة و صغيرة ، جعلت صورتها التاريخية غائمة أو مشوشة .

وإذا كان الكاتب محمود لم يصل في بحثه الىنتائج ترضي المؤرخ بصدد الاشكالية السبئية ، فإن اثارته لهذا الموضوع من زاوية منهج التاريخ و فلسفته ، أمر جدير بالأهتمام و التنويه . فالمؤرخ إنما يعنيه النص بذاته و يؤثر الدوران فيه ، ناقداً و محللاً و مستخلصاً ، أكثر من الاستغراق في الجدل حولة ، وان كان على مسافة قريبة منه .و لكن هذا الكاتب - كما يتضح من دراسته - لم يكن هدفه التأريخ لابن سبأ ودوره في الفتنه الشهيرة ، بقدر ما توخى الوصول الى نظرية في التاريخ ، وهو امر حقق فيه بصورة ما نجاحاً ، وكان لابد في النتيجه أن يصب شئ من ذلك في جوهر الموضوع ، و أن تُحدث " المساءلات " هزّة فيه ، مما

يعّزز إعادة قراءته من خلال رؤية المؤرخ نفسـه . قـد يتجلـى ذلـك على الاقل في استنتاجه الأخير بصدد هذه المسألة :

"هكذا رأينا عبد الله بن سبأ ، حيث كانت حقيقته التاريخية معرّضـة لأكثر من حالة نهب تاريخيه و إضاعة لمعالمهـا الفعليـه و بعـثرة لجغرافيتهـا الاجتماعيه و التاريخية ، نظراً لتعرضهـا الكبـير لرهانـات مختلفـة لا زالـت تتصاعد و تتنامى و تتصارع تاريخياً في الواقع الراهن نفسه "[1] .

---

[1] المرجع نفسه ص ٢٥٤

خاتمة

ناقشت فيما سلف أبرز الأفكار في موضوعة عبد الله بن سبأ ، وهي كما رأينا متفاوته بين القطع بوجوده ، والتشكيك به ، و الرفض المطلق له . و لم يكن هذا التفاوت في الواقع الا نتيجة لتضارب المنهج الذي كان سردياً لدى الاتجاه الأول، فيما نزع الى التحليل و الاستدلال مع الإتجاه الثاني ، و تطرق نحو الاجتهاد الخاص غير المسوغ دائماً في ظل الاتجاه الثالث .

ولقد حاولت خلال دراستي لهذه القضيةالشائكة ، التعامل معها بحيادية المؤرخ ، دون أن يأخذني عن سابق تصميم اتجاه ما الا ما كان يتقاطع بينه و بين ما وصلتُ اليه من استنتاجات نضح بها النص التاريخي دون غيره . ولعل النظره الدينية التي اقتبس اصحاب الاتجاه الأول كثيراً منها عن أسلافهم – ممن قرأوا التاريخ في رحاب " الحديث " و السيرة " – قد انعكست على مفاهيمهم التي ظلّت خاضعة لها على مساحة النص

التاريخي ، مكتسباً الهالة نفسها ، وربما أكثر مما كان لدى الأوائل نحـوه . و لذلك فإن قراءة بعضهم لظاهرة السبئية لم تختلف عن تلك التي تنـاولت القضايا الأخرى في التاريخ الاسلامي ، حيث كانت الرواية الواحـدة - و غالباً الأولى - تحفر لهم الطريق ، غير ملتفتـين الى روايـات أخـرى قـد تنشر من الضوء ما ليس بإمكان " روايتهم " القيام بـه. ومـن هنـا جـاء تسليم هؤلاء المؤرخين بشخصية ابن سبأ وقبولهم لرواية سيف ، دونما نقد او مقارنه ، كنتيجه لهذا التقوقع داخل منهـاجهم الـذي بقـي جـامداً و لم تطرقه رياح المؤثرات العلمية الجديدة .

اما الاتجاه الثاني ، فكان لديه من المرونة مـا جعلـة أكـثر قـدرة علـى التوّغل ليس فقط في ثنايا الروايه السبئية بـل في تفـاصيل المرحلـة كاملـة ، رابطاً بدقة بين أجزائهـا ، و مدركـاً في وعيـه أبعادهـا ، و مقاربـاً بالتـالي منطق الاحداث فيها. ولعل خير من يمثله، الكاتب الكبير طه حسين الذي تناول شخصية ابن سبأ بذهنية المؤرخ اللمّاح ، فلم يقع في شـرك الروايـه مستسلماً لها، و إنما لجأ الى تفكيكها و إخضاعها للنقد الهـادئ ، قبـل أن يعيد جمع اطرافهاو ينتهي اخيراً الى التشكيك بوجود هذه الشخصية الـتي وصفها بـ " الطارئة" على المرحلة. وكان ذلك أقصـى مـا يمكـن للمـؤرخ القيام به ، إذ ليس عليه اتخاذ قرار ما بشأن أيّ من الاحداث دون العـودة

الى النّص التاريخي الذي وحده يقرّر بعد دراسته ، مدى الواقعية التي ينطوي عليها ، وهي نسبية في شتى الاحوال .

وفي ضوء ذلك ، فإن المسألة لا تبقى محصوره بوجود ابن سبأ أو عدم وجوده ، لأن المؤرخ لا خيار له في النهاية سوى التعامل مع النص كأمر واقع ،بل تصبح في الدرجة الأولى محصورة بالدور الذي نُسب لهذا الرجل القيام به و مدى حجمة في المرحلة و تأثيره في تطوراتها . هذا ما تنّبه له طه حسين عندما رأى أن " الفتنه " نضجت في الامصار كنتيجة للسخط الذي عمّ فيها على سياسة الخليفة و عمّاله ، و لم تتأثر بعوامل "طارئة " دفع بها ذلك الرجل " الخارق" كما صورته الرواية المنسوبة لسيف بن عمر . فلم يّتردد هذا الكاتب من حسم هذه المسألة قائلاً : "لست ادري أكان لإبن سبأ خطر ايام عثمان أم لم يكن . و لكني اقطع بأن خطره ، إن كان له خطرليس ذا شأن ، وما كان المسلمون في عصر عثمان يعبث بعقولهم و آرائهم و سلطانهم طارئ من أهل الكتاب أيام عثمان و لم يكد يسلم حتى أُنتدب لنشر الفتنة و إذاعة الكيد في جميع الاقطار "[1] .

---

[1] طه حسين ، الفتنة الكبرى ص ١٣٢

وأما الاتجاه الثالث و الاخير فقد تراوح بين نظريتين : عبّر عن الأولى هشام جعيط من خلال دراسة معمقــة لتفـاصيل الفتنـة ، واصفـاً الروايـة بأنها "تتيـه وتخطـئ"و منتهيـاً الى وجـوب " رفضهـا بشـكل قـاطع "[1]. و الثانية عبّر عنها مرتضى العسكري الذي رأى في ابن سبأ مجرد اسطورة و شـخصية مختلقـة في الاسـاس . وهـو -كمـا رأينـا - منطلـق مـن نظـرة احتهادية مسـبقة الى هـذه الشـخصية. وليـس مـن دراسـة نقديـة للروايـة التاريخية التي تفرّدت بذكرها . أي أن هذا المؤرخ لم يعترف بالنّص الذي اعتبره مدسوساً ، كما الشخصية نفسها ، لتشويه صـورة التشـيع والـدور الذي اتخذه عليّ في الاحداث السابقة على اغتيال الخليفة عثمان .

ولسنا في النهاية متّوخين الدخول في جدلٍ قد ينتهي عقيمـاً في صـدد هذه المسألة ، و لكننا و نحن نؤرخ من دون أية خلفية لإبن سـبأ ، لانجـد فائدة في الخروج على النّص التاريخي ، بل على العكس من ذلك علينـا أن نفيح في أرجائـه و نجـوس كافـة الأبعـاد فيـه ، ايجابيـه كـانت أم سـلبية ، لتحقيق مقاربـة ممكنـه باتجـاه الحقيقـة التاريخيـة . وعندمـا يصبـح التـاريخ مأخوذاً بمنطق الحسم ، فينتظر الى رواية على أنها مقبولة بالمطلق و أخرى

[1] الفتنة ، جدلية الدين و السياسة ص ١٠٩

مرفوضة بالمطلق أيضاً ، فأنه يتحّول حينئـذٍ الى ساحة صراع دائـم و لا يعود ثمة مجال امامها للبحث الموضوعي الهادئ .

و لابد من العودة أخيراً الى مـا سبق أن خلصنـا اليـه ، وهـو المتعلـق بالدور المنسوب الى ابن سبأ ،و ليس الى الشخصية ذاتها و ما نُسج حولها من قدرة فائقة . فهذا الدور كان هامشياً و لم يترك حتى بصمات خفيفة على مسار المرحلة ، و لم يُشكل بالتالي أية فاعليـة في المنحى الـذي أضـلّ الكثير من المؤرخين ، فسلّموا به كداعية أمسك في يده بزمام الحركة الـتي قامت بالثورة على الخليفة . واذا كانت الرواية منطوية على نقاط ضعـف بارزة ، من بينها تفّرد الطبري بها شأن روايات أخرى ساقها هذا المـؤرخ ليثبت سعة اطلاعة و شمولية " تاريخـه " و موسـوعيته ، فـأن ذلـك ليـس كافياً لرفضها أو مقاطعتها و التأريخ للمرحلة بمعزل عنها.

إنه الدور - الاسطورة وما اكتنفه مـن تضليـل و مبالغـة ، أكـثر مـن الرجل- الاسطورة الذي قد يكـون مجـرد تلفيـق او لا يكـون . فهـو أقـل حجمـاً مـن أن يرتقـي الى الـدور ، والى مستوى أن يقـود النخبـة تحـت قيادته.

المصادر و المراجع

- ابن الأثير : الكامل في التاريخ . دار صادر - بيروت ١٩٧٩ .

- ابن خلدون : كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر . مؤسسة الاعلمي - بيروت ١٩٧١ .

- المقدمة: دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩

- ابن قتيبة : الإمامة و السياسة (يُنسب له) . المكتبة التجارية الكبرى

- القاهرة د. ت .

- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس . تحقيق عبد الله أنيس طباع. دار النشر للجامعيين - بيروت د . ت .

- ابن منظور : لسان العرب . دار صادر - بيروت . د. ت .

- خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط : تحقيق سهيل زكار . دمشق ١٩٦٨ .

- سيف بن عمر التميمي : الفتنة ووقعة الجمل . تصنيف احمد راتب عرموش دار النفائس - بيروت ١٩٧٢ .

- السيوطي : تاريخ الخلفاء . تحقيق محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٦٩ .

- الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصر ١٩٦٧

- المسعودي : مروج الذهب و معادن الجوهر . تحقيق يوسف اسعد داغر . دار الأندلس بيروت ١٩٧٣ .

-ياقوت الحموي : معجم الأدباء . دار إحياء التراث العربي. بيروت د. ت .

- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي . دار صادر - بيروت ١٩٦٠ .

****

- امين ، أحمد : فجر الاسلام . دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٩ . ضحى الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦١ .

- جعيط ، هشام : الفتنة ، جدلية الدين و السياسة في الاسلام المبكر. ترجمة خليل أحمد خليل - دار الطليعة بيروت د.ت .

- حسن ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي و الديني و الثقافي والاجتماعي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ .

- حسين ، طه : الفتنة الكبرى . دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

- دوري ، عبد العزيز : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب . دار المشرق - بيروت ١٩٨٣ .

- زكّار ، سهيل : التأريخ عند العرب . دار الفكر د. ت .

- شعبان ، محمد عبد الحي : صدر الاسلام و الدولة الاموية . الدار الأهلية للنشر - بيروت ١٩٨٣ .

-شلبي ، احمد : موسوعة التاريخ الاسلامي . مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ .

- عبد المقصود ، عبد الفتاح : الامام علي بن ابي طالب . منشورات مكتبة العرفان . بيروت د.ت .

- العسكري ، مرتضى : عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى . منشورات كلية أصول الدين - بغداد ١٩٦٨ .

- العقاد ، عباس محمود : عبقرية عثمان . المكتبة المصرية - صيدا . د.ت.

- عمارة ، محمد: الخلافة و نشأة الأحزاب الاسلامية . المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت ١٩٧٧ .

-فان فلوتن ، ج. : السيطرة العربيه و التشيع و المعتقدات المهدية في ظل خلافة بني امية - ترجمة ابراهيم بيضون . دار النهضة العربية - بيروت ١٩٩٦ .

-فلهوزن ، ي . : الخوارج والشيعة .ترجمة عبد الرحمن بدوي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨ - تاريخ الدولة العربية . ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة . القاهرة ١٩٦٨.

- لاكوست ، إيف ، العلامة ابن خلدون . ترجمة ميشـال سـليمان . دار ابن خلدون ١٩٧٨

- لواساني ، احمد : نظرات في تاريخ الادب - بيروت ١٩٨١ .

- محمود ، ابراهيم : أئمة و سحرة ، البحث عن مسيلمة الكذّاب و عبد الله بن سبأ . منشورات رياض الريس ١٩٩٦

-مصطفى ، شاكر : التـاريخ العربـي و المؤرخـون . دار العلـم للملايـين بيروت - ١٩٧٨ .

كتب صدرت للمؤلف

١- تاريخ العرب السياسي ، من فجر الاسلام حتى سقوط بغـداد ، دار الفكر بيروت ١٩٧٤ .

٢- التوابون . ط ١ - دار التراث الاسلامي ١٩٧٥ ط٢ ، دار التعـارف ١٩٨٠ .

٣- الدولة العربية في اسبانية ، من الفتح حتى سقوط الخلافة (٣ طبعات) دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٨- ١٩٨٠ - ١٩٨٦ .

٤-مـن دولـة عمـر الى دولـة عبـد الملـك ، دراسـة في تكـوّن الاتجاهـات السياسية في القرن الاول الهجري . ط١ دار النهضة العربية ١٩٧٩، ط٢ دار إقرأ ١٩٨٦ ، ط ٣ دار النهضة العربية ١٩٩١ .

٥- الدولـة الامويـة و المعارضـة ، مدخـل الى كتـاب السـيطرة العربيـة للمستشرق الهولندي فان فلوتن مع ترجمة له ، ط ١ دار الحداثة ١٩٨٠ ،

ط٢ ، المؤسسة الجامعية لدراسات ١٩٨٥ ،ط٣ . دار النهضة العربية ١٩٩٦.

٦-الحجاز والدولة الاسلامية ، دراسة في اشكالية العلاقة في القرن الاول الهجري،ط١ المؤسسة الجامعيه ١٩٨٣ . ط٢ دار النهضة العربية ١٩٩٥.

٧- اتجاهات المعارضة في الكوفة ، دراسة في التكوين الاجتماعي والسياسي . (٤١- ٧١ هـ) معهد الإنماء العربي ١٩٨٦ .

٨- الأمراء الأمويون الشعراء في الاندلس ، دراسة في أدب السلطة . دار النهضة العربية ١٩٨٧.

٩- مؤتمر الجابيه ط١ دار اقرأ ١٩٨٨. ط٢ دار النهضة العربية ١٩٩٦.

١٠- الأنصار و الرسول ، اشكاليات الهجرة و المعارضة في الدولة الاسلامية الاولى ، معهد الانماء العربي ١٩٨٩ .

١١- مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية . دار المورخ العربي ١٩٩٥.

١٢- بلاد الشام ، اشكاليات الموقع و الدور في العصور الاسلامية . دار المنتخب ١٩٩٦ .

١٣- عبد الله بن سبأ ، اشكالية النص و الدور الاسطورة . دار المورخ العربي ١٩٩٧ .

١٤ - الإمام علي ، في رؤية "المنهج" و رواية التاريخ _ (يصدرقريباً)

فهرس الموضوعات